الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني

نقلها من الفارسية الى العربية حضرة صاحب الفضيلة

الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

بمساعدة عارف افندي ابي تراب

الافغاني

﴿ ملتزم الطبع ﴾

عبد العليم صالح المحامي بمصر

﴿ الطبعة الثالثة ﴾

﴿ ثمن النسخه خمسة قروش صاغا ﴾

[طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣٠]

« لصاحبها اسماعيل حافظ الخبير بالمحاكم الاهليه »

الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني

نقلها من الفارسيه الى العربيه صاحب الفضيلة

الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

بمساعدة عارف افندي ابي تراب

الافغاني

﴿ ملتزم الطبع ﴾

عبد العزيز صالح المحامي بمصر

﴿ الطبعة الثالثة ﴾

[طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣٢٠]

« لصاحبها اسماعيل حافظ الخبير بالمحاكم الاهليه »

مقدمة

﴿ الحمد لله والصلاة والسلام على رسل الله ﴾

وبعد فقد كنت في سنة ١٣١٢ هجرية التمست من حضرة مولانا صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الترخيص بطبع رسالة الرد على الدهريين للمغفور له السيد جمال الدين الافغاني وقد اذنني بذلك وكان الاذن قاصرا على تلك المرة ولما كانت جميع النسخ التي طبعت قد نفدت وكثر طلب الرسالة في هذه الايام وخصوصاً من ساكني الاقطار الخارجية طلبت من صاحب الفضيلة المشار اليه التصريح باعادة طبعها وقد صرح حفظه الله بذلك . بمقتضي كتاب محرر بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٩٠٣.

وقد يتعجب من نفاد الطبعتين ومن طلب الناس اعادة طبعها ثالثة مع أن الاقبال على مطالعة الكتب عقيم في الشرق وخصوصاً في مصر وسوقها في كساد وتجارتها بائرة والهمة المصروفة لرفض كتب العلم اعلى من الهمة في اقتنائها ودراستها لانصراف قلوب الناس عن تكميل النفس وتعليمها الى تنمية الابدان وتقويمها لشغفهم بالماديات وتطوحهم في أودية الشهوات ولكن لا يلبث أن يزول العجب اذا علم أن الدهرية آخذة في النمو في هذا العصر عصر المدنية ... وأنها بتجددها يرى لفيف الفضلاء وجماعة العقلاء لزوم تجديد طبع هذا الكتاب الذي يدد غياهب المادة وقشع سحب الدهرية

وأنار العقول بهدايته الى النور الالهي وصفى للقرائح من كدرات الريب والزيغ عن الاعتقادات الصحيحة . ولاجل مقاومة مذهب الدهريين وملاشاته من هـذا العالم يجب أن تساق اليه كتائب الادلة والبراهين التي انتظمت في ميدان طروس هذا الكتاب ونازلته فانتصرت وانبرت له فظفرت وكيف لا يكون ذلك كذلك وهي براهين قامت على وجوب الاعمال بالدين والتمسك بحبل اليقين ونطقت بالدليل الحسي على أن الامة لا ترتفع بغير الدين ولا تنخفض الا بتركه. وقس على حال الأمة شأن الافراد واتخذ ما هو كائن بيننا الآن من سوء الحال دليلا يدلك على مقدار ما بلغ اليه الفرد في معاملة الآخر معاملة لا تنطبق على دين ولا على عقل صحيح. وقد أخطأوا محجة الصواب في قولهم هذا ما ترشدنا اليه عقولنا ويقودنا اليه شعورنا ووجد اننا ولو علموا أن تدبير الكائنات في هذا العالم أمر أعجز عقول البشر وتعبت في سن نظاماته الرسل والأنبياء عليهم السلام وهم يبلغون الوحى ولا ينطقون عن الهوى وهم صفوة الله من خلقه اختارهم لهداية البشر واصطفاهم لذلك على العالمين لا قروا بالمعجزات وبعجزهم عن مجاراة العقول السليمة المستمدة من المظهر الالهى

زعموا أنهم يجادلون بالعقل ويحاجون بالادراك وهم موالوا الشياطين (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم)

فالعقل الصحيح وهو جوهر مجرد انما استمد تلك الجوهرية من النور القدسي الذي غذاه بأحكامه ورباه على حدوده وأوقفه على نواميس الخليقة وأطلعه على أسرار الكائنات التي كونها الله سبحانه وتعالى وجعل

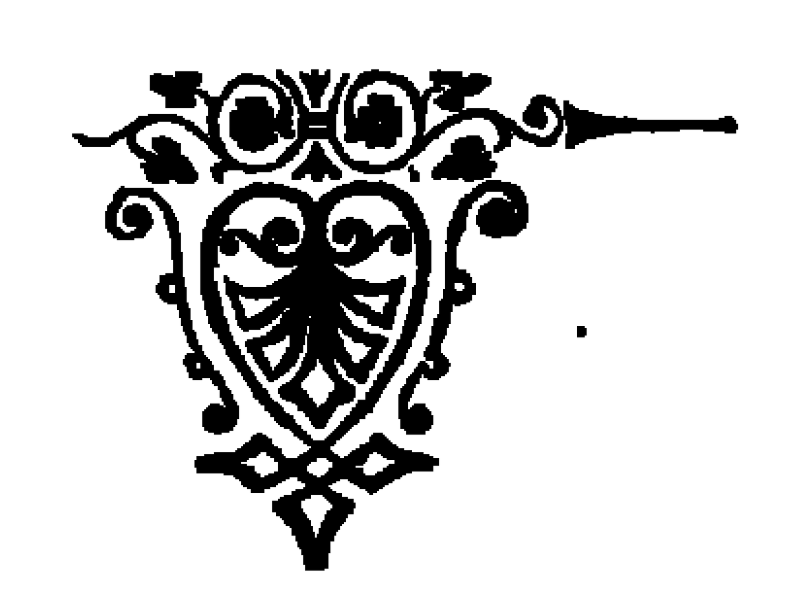
العقل يهتدي الى معرفة خفاياها ودقائق خلقتها وجلائل حكمتها

واذا كان السلطان انما يصدع في ملكه بمقتضي القانون الذي سنه لنظام الملك ويسوس رعيته بالامر الذي يجمعهم على طاعته ويقيمهم على ولائه ويلفهم تحت لوائه وطاعته فى ذلك واجبة والا انتقض النظام وانفصم الوئام وهو في ذلك يستمد العون من مولاه ويطلب الحول والقوة من الله . فكيف بحال الفرد إذا هو لم يصدع في شؤنه بالقانون السماوي الذي أمر بأن يتعهد نفسه به وأن يجري على أحكامه حتى لا يختل نظام الفرد في نفسه ولا يعتل عقله فلا يدري الاثم أم ملوم . ونختم المقال بكلمة للجاحظ في هذا المعنى حيث قال

فالذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن ولا بأدب الرسول عليه السلام ولم يفزع الى ما في الفطن الصحيحة والى ما توجبه المقايس المطردة والأمثال المضروبة والأشعار السائرة أولى بالاساة وأحق باللائمة قال الله عز وجل (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقال النبي عليه الصلاة والسلام لا تجن يمينك على شمالك وهذا حكم الله وآداب رسوله والذي أنزل به الكتاب ودلّ عليه في حجج العقول اهـ

فاللهم كما أمرتنا أن نطيعك وفقنا الى طرق الهداية واعصمنا من الزلل انك على كل شيء قدير

(عبد العليم صالح)





﴿ سيرة صاحب هذه الرسالة الشيخ جمال الدين الافغاني ﴾

يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره وتباعد ما بينهم في معرفة حاله وتباين صوره في مخيلات اللاقفين لخبره حتى كانه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه او قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله والرجل في صفاء جوهره وزكاء مخبره لم يصبه وهم الواهمين ولم يمسسه حزر الخراصين وانا نذكر مجملاً من خبره نرويه عن كمال الخبرة وطول العشرة

هذا هو السيد محمد جمال الدين ابن السيد صفتر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينمي نسبه الى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن ابي طالب كرّم الله وجهه . وآل هذا البيت عشيرة وافرة المدد تقيم في خطة ﴿ كنر ﴾ من اعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة ايام ولهذه العشيرة منزلة علية في قلوب الافغانيين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من ايديها دوست محمد خان جد الامير الحالي وأمر

تنقل ابي السيد جمال الدين وبعض اعمامه الى مدينة كابل

ولد السيد جمال الدين في قرية (اسعد آباد) من قرى كنر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال ابيه الى مدينة كابل وفي السنة الثامنة من عمره اجلس للتعلم وعني والده بتربيته فأيد العناية به قوة في فطرته واشراق في قريحته وذكاء في مدركته فأخذ من بدايات العلوم ولم يقف دون نهاياتها. تلقى علوماً جمة برع في جميعها فنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وآلهية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن اساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه فى الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة اشهر ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة وأتي بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التي مرّ بها في سياحته واكتنه اخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد اداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان احمد شاه صهره وابن عمه سار السيد

جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى ان توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمناً طويلاً . وتقلد الامارة ولي عهدها شير علي خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان ان يقبض على اخوته خصوصاً من هو اكبر سناً منه ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة وألبوهم للفساد طلباً للاستبداد بالامارة وكان فى جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد اعظم ومحمد اسلم ومحمد امين وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد اعظم فلما أحسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار وتفرقوا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يليها من قبل ابيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجالدات عنيفة عظم أمر محمد اعظم وابن اخيه عبد الرحمن (الامير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وانقذا محمد افضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه اميراً على افغانستان ثم ادركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد اعظم خان وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه فى العظائم وما دونها (على خلاف ما تعوده امراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد اعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوى قرابته حمله على تفويض مهمات من الاعمال الى ابنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عراة في الحنكة فساق الطيش احدهم وكان حاكما في قندهار على منازلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند ابيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما

تلاقي مع جيش عمه دفعته الجرأة على الانفراد عن جيشه في مائتي جندي واخترق بها صفوف اعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما التفت يعقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الفرّ المتهور منقطعاً عن جيشه فكرّ عليه وأخذه اسيراً فتشتت جند قندهار وقوى الامل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي وبذلوا لها قناطير من الذهب فقرّقها في الرؤساء والعاملين لمحمد اعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات وبعد حروب هائلة تغلب شير علي وانهزم محمد اعظم وابن اخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن الى بخاري (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد اعظم الى بلاد ايران ومات بعد اشهر في مدينة نيسابور وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسسه الامير بسوء احتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيراً له ان يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فاذن له على شرط أن لا يمرّ ببلاد إيران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها ولم تأذن للعلماء في الاجتماع عليه الا على عين من رجالها فلم يقم اكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في احد مراكبها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر واقام بها نحو اربعين يوما تردد فيها على الجامع الازهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين

ومالوا اليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثم تحوّل عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة

وصل الاستانة وبعد أيام من وصوله امكنته ملاقاة الصدر الاعظم عالي باشا ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله واقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجراء وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وادبه وهو غريب عن ازيائهم ولغتهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سمي عضواً في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه واشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافقه على الذهاب اليها رفقاؤه. ومن تلك الطرق ما حفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات حسن فهمي افندي لانها كانت تمس شيئاً من رزقه فارصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دار الفنون تحسين افندي ان يلقي فيها خطاباً للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فالح عليه تحسين افندي فأنشأ خطاباً طويلا كتبه قبل القائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا. وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولتلو منيف باشا ناظر المعارف وكان عضوا في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم واطنب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة واعيان اهل العلم وارباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعدّه وارسل حسن فهمي افندي اشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب

منه حجة للتمثيل به وما كان يجدها لو طلب حقاً ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية ببدن حيّ وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن فشبه الملك مثلا بالمخ الذي هو مركز التدبير والارادة . والحدادة بالعضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين ومضى فى سائر الصناعات والاعضاء حتى اتي على جميعها ببيان ضاف واف ثم قال هذا ما يتألف منه جسم السعادة الانسانية ولا حياة لجسم الا بروح وروح هذا الجسم أما النبوة وإما الحكمة ولكن يفرق بينهما بان النبوة منحة إلهية لا تنالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده والله اعلم حيث يجعل رسالاته . أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات . وبأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . وان احكام النبوات آتية على مافي علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فالاخذ بها من فروض الايمان اما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ماهو الاولى والافضل على شريطة ان لا تخالف الشرع الالهي . هذا ماذكره متعلقاً بالنبوة وهو منطبق على ما اجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية الا ان حسن فهمي افندي اقام من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فاشاع ان الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناعة (وهكذا تكون حجج طلاب العنت) ثم أوعز الى الوعاظ في المساجد ان يذكرو ذلك محفوفاً بالتفنيد والتنديد فاهتم السيد جمال الدين للمدافعة عن نفسه واثبات براءته مما رمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا بمحاكمة شيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك) واشتدّ في طلب

المحاكمة وأخذت منه الحدة مبلغها وأكثرت الجرائد من القول فى المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها أعوان لشيخ الاسلام فاشار بعض أصحاب السيد عليه بأن يلزم السكون ويغضي على الكريهة وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل ولجّ في طلب المخاصمة فعظم الامر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجلاء عن الاستانة بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود إن شاء ففارق الاستانة مظلوماً فى حقه مغلوباً لحدته وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها فى أول محرم سنة ١٢٨٨ هذا مجمل أمره فى الاستانة وماذكره سليم العنحوري فى شرح شعره المسمى سحر هاروت مما يخالف ذلك خلط من الباطل لاشائبة للحق فيه

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقي صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصري كل شهر نزلاً أكرمته به لافي مقابلة عمل واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فاورى واستفاضوا بحره ففاض دراً وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية طبيعية وعقلية وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من أول ماابتدأ الى آخر مااختتم ولم يذهب الى الازهر مدرسا ولا يوماً واحداً نعم كان يذهب اليه زائراً وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة . عظم أمر الرجل فى نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه واعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته فى

الديار المصرية ثم وجه عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك ألباب واستضاءت بصائر وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الاجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون فى المراسلات الخاصة وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها

ومن عشر سنوات ترى كتبة فى القطر المصري لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة ومامنهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به ومنكر ذلك مكابر وللحق مدابر . هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذاً بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم النظر فيها على ان القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصار النظر خشية على عقائدهم من الزيغ أما الثابتون فى إيمانهم فلهم النظر في علوم الاولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة فى دينهم وقوة فى يقينهم ولنا في أئمة الملة الاسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم اخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجلسه فيسمعون مالا يفهمون ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون غير ان

هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه في ارتفاع والقلوب عليه فى اجتماع الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديويها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشرين لمحامده الا أن بعض المفسدين ومنهم (مستر فيفيان) قنصل انكلترا الجنرال سعى فيه لدى الجناب الخديوى ونقل المفسد عنه ما الله يعلم انه بريء منه حتى غيَّر قلب الخديوي عليه فاصدر أمره باخراجه من القطر المصرى هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بحيدر آباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدر آباد الى كلكته وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم أبيح له الذهاب الى أي بلد فاختار الذهاب الى أوربا وأول مدينة أصعد اليها مدينة لوندره أقام بها أياما قلائل ثم انتقل عنها الى باريز وأقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه فى أثنائها ولما كلفته جمعية العروة الوثقى ان ينشئ جريدة تدعوا المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية أيدها الله سألنى ان أقوم على تحريرها فأجبت ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصاً مالم يأخذه قبلها وعظ واعظ ولا تنبيه منبه وذلك لخلوص النية فى تحريرها وصحة المقصد في تحبيرها ثم قامت الموانع دون الاستمرار في اصدارها حيث قفلت أبواب الهند عنها واشتدت الحكومة الانكليزية في إعنات من تصل اليهم فيه ثم بقي بعد ذلك مقيما باوربا أشهراً في باريز وأخرى في لندره الى أوائل شهر جمادي الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع الى البلاد الايرانية

أما مذهب الرجل فحنفي حنفي وهو وان لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل الى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاشريه في مصر أيام اقامته بها ولا يأتى من الأعمال الا ما يحل في مذهب امامه فهو اشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله

أما مقصده السياسى الذي قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي اليه مدة حياته وكل ما أصابه من البلاء اصابه فى سبيله فهو انهاض دولة اسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شؤونها حتى تلحق الامة بالامم العزيزة والدولة بالدول القوية فيعود للاسلام شأنه وللدين الحنيفى مجده ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الاقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية وله فى عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها

أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى الا بنوع من الاشارة اليها لهذا الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وابرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى اليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه . فيأتى على اطرافه ويحيط بجميع اكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه واذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع كأن ذهنه عالم الصنع والابداع وله لسن في الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما

احد الا ان يكون في الناس من لا نعرفه وكفاك شاهداً على ذلك انه ما خاصم احداً الا خصمه ولا جادله عالم الا الزمه وقد اعترف له الاوربيون بذلك بعد ما اقر له الشرقيون وبالجملة فاني لو قلت ان ما اتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو اقصى ما قدّر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوا الفضل العظيم

أما اخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته وله حلم عظيم يسع ماشاء الله ان يسع الى ان يدنوا منه احد ليمس شرفه او دينه فينقلب الحلم الى غضب تنقض منه الشهب فبينما هو حليم أوّاب اذا هو أسد وثاب . وهو كريم يبذل مابيده قوي الاعتماد على الله لا يبالي ماتأتي به صروف الدهر عظيم الامانة سهل لمن لاينه صعب على من خاشنه طموح الى مقصده السياسي الذي قدمناه اذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان وهو قليل الحرص على الدنيا بعيد من الغرور بزخارفها ولوع بعظائم الامور عزوف عن صغارها شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه الا انه حديد المزاج وكثيراً ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة الا انه صار اليوم في رسوخ الاطواد وثبات الاقناد فخور بنسبه الى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لا يعد لنفسه مزية ارفع ولا عزا امنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده

أما خلقه فهو يمثل لناظره عربياً محضاً من أهالي الحرمين فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الاولين من سكنة الحجاز حماه الله . ربعة في طوله وسط في بنيته قمحي في لونه عصبي دموي في مزاجه عظيم الرأس فى اعتدال عريض

الجبهة في تناسب واسع العينين عظيم الاحداق ضخم الوجنات رحب الصدر جليل في النظر هش بش عند اللقاء قد وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه

بقي علينا ان نذكر له وصفا لو سكتنا عنه سألنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباحات كالجلوس في المنتزهات العامة والاماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً من اللغو منزهاً عن اللهو وكان يوافيه فيها كثير من الامراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه لكن الله يحب ان تؤتي رخصه كما يحب ان تؤتي عزائمه وأي غضاضة على المرء المؤمن في ان يفرج بعض همه بما أباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعاً لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكنا في تاريخه مسلك التفصيل لادى بنا الى التطويل وانا نتبع هذا بما كتبه سليم أفندي العنحوري تخطئة لنفسه فيما نقله في شرح سحر هاروت والمطلع على ما كتبناه يعلم خطأه في جل مارواه

هذا مانشر سليم أفندي العنحوري في جريدة لسان الحال والجنة بحروفها

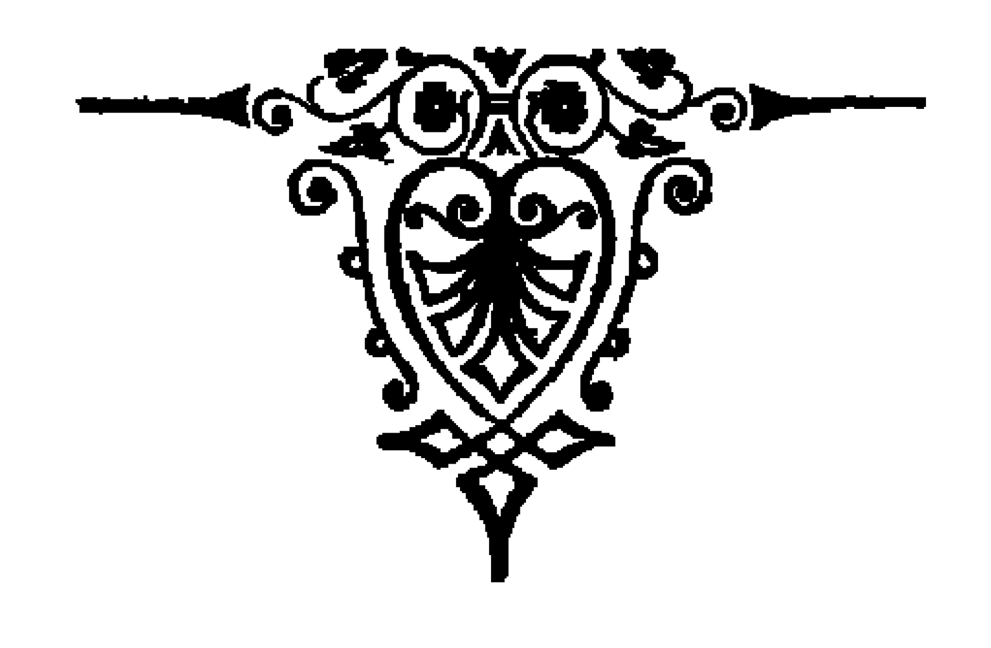
لا يخفى اننا كنا أتينا في حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شيء من ترجمة الحكيم الشرقي العزيز المادة السيد جمال الدين الافغاني الطائر الصيت وأبنا في عرض قصصنا لمحةً مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته ووهن دينه مما كان مدعاة اسفنا وباعث استغرابنا ثم اسعدنا البخت بان التقينا هاته الايام بصديقنا المحلى بحلية الفضل الحائز قصب السبق

في مضماري العقل والنقل الشيخ محمد عبده اعزّ اخلاء الحكيم المشار اليه فجال بيننا حديث أفضى الى البحث بما يرويه عنه بعض الناس ورويناه نحن عنهم فأوضح لنا بدلائل ناهضة وبراهين داحضة ان ماتتناقله الالسن من هذا القبيل ما كان الا من آثار مارماه به بعض من غمرتهم اياديه فجازوه بالكنود يعني بهم قوماً كفرة تزلفوا اليه فاغتر ببراقيش ألسنتهم ووطأ لهم جانب الانس سالكاً في سبيل اسعادهم كل سبيل فلما دارت عليه الدوائر وتحولت الاحوال أخذوا يتحججون بالتلمذة عليه وينسبون ما أشربوا من الكفر اليه وبين لنا باجلى أسلوب ان المباحث التي كان يدور بها لسانه اثناء مناظرته الجدلية في بيان عقائد المعطلين كان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها والجنوح اليها بل مع تعقيبها بالرد عليها واقامة الحجج على بطلانها ثم تأييداً لمقاله هذا وقفنا على رسالة منسوجة بقلم السيد المشار اليه سوّأً بها أصحاب المبادئ المعطلة من أي فريق كانوا وبيّن قبح طريقتهم بعبارة حنيفٍ عريق بالاسلام نثبت منها هنا مبحثه في ضرورة اعتقاد الالوهية لسعادة الانسان

قال بعد بيان وجوه زعموها كافيةً لصلاح النوع البشري ورد مازعموا ﴿ فاذن لم يبق للشهوات قامع ولا للاهواء رادع الا الايمان بان للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الانفس سامي القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بانه قد قدّر للخير والشر جزاءً يوفاه مستحقه في حياة بعد هذه الحياة السرمدية ﴾ ثم قال ﴿ فلم تبق ريبة في ان الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شيءٌ من

أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سبباً في السعادة التامة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوي ويصعد بذويه الى ذروة الفضل الظاهري والباطني ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفرهم بسعادة الدارين ﴾ ثم أتى بعد هذا في مزايا الدين الاسلامي خصوصاً بما يطول بيانه ويعلمه من اطلع على تلك الرسالة هذا كله بعد ماقال في وصف الماديين (انهم . كيفما ظهروا وفي أي صورة تمثلوا وبين أي قوم نجموا كانوا صدمةً شديدة على بناء قومهم وصاعقةً مجتاحةً لثمار أممهم وصدعاً متفاقما في بنية جيلهم يميتون القلوب الحية باقوالهم وينفثون السم في الارواح بآرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم فمارزئت بهم أمةٌ ولا منى بشرهم جيل الا انتكث فتله وتبددت آحاده وفقد قوام وجوده . ثم أطال في بيان ذلك الى حد لم يبق معه محل للريبة في كمال اعتقاده وجلاء يقينه

فلخفتنا لذلك خفة الطرب وسارعنا لاذاعته بلسان الصحف شان المؤرخ العادل وقياماً بحق الادب وضناً بفضل هذا الرجل الخطير من ان تتناوله ألسنة من لايعرفه خطا وافتراء والله يتولى الصادقين



الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الافغاني

نقلها من الفارسيه الى العربيه صاحب الفضيلة

الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

بمساعدة عارف افندي ابي تراب

الافغاني

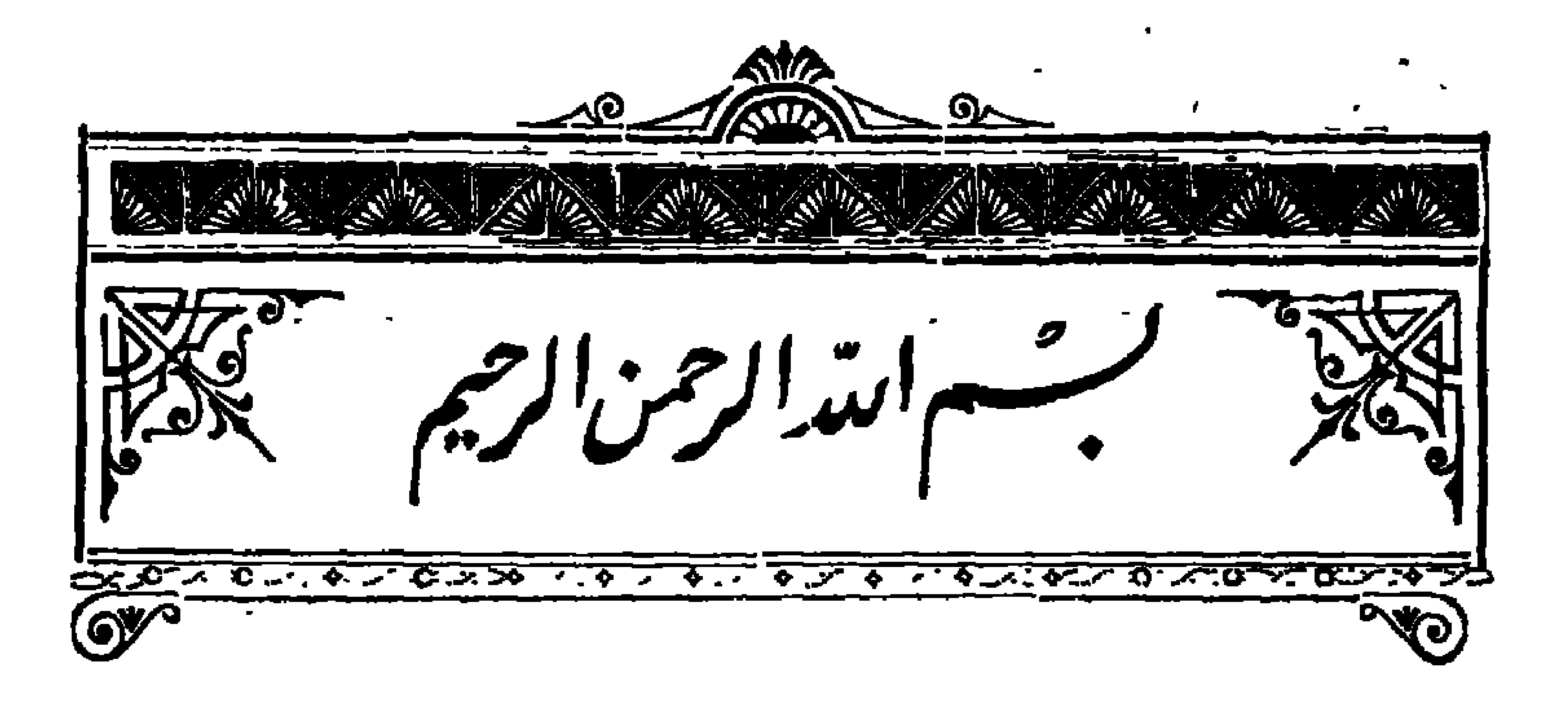
﴿ ملتزم الطبع ﴾



﴿ الطبعة الثالثة ﴾

[طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣٢٠]

« لصاحبها اسماعيل حافظ الخبير بالمحاكم الاهليه »



نحمد الله على الهداية . ونعوذ به من الغواية . ونصلي ونسلم على خاتم رسله . وآله وصحبه هداة سبله . وبعد فقد أتيح لي الاطلاع على رسالة فارسية في نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل . محيط المعرفة الشامل . الشيخ جمال الدين الحسيني الافغاني أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر مالا يحتاج معه الى الوصف وأما الرسالة فعلى ايجازها قد جمعت لارغام الضالين وتأييد عقائد المؤمنين مالم يجمعه مطول في طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة مالم يحوه مفصل على تفصيله * دعاه الى تصنيفها حمية جاشت بنفسه أيام كان في البلاد الهندية عند مارأى حكومة الهند الانكليزية تمد في الغي جماعة من سكان تلك البلاد اغراء لهم بنبذ الاديان وحل عقود الايمان وان كثيراً من العامة فتنوا بآرائهم وخدعوا عن عقائدهم وكثر الاستفهام منه عن حقيقة ماتدعيه تلك الجماعة الضالة وممن سأله عن ذلك حضرة الفاضل مولوي محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الاعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند فاجابه الشيخ برقيم صغير يعده فيه بانشاء رسالة في بيان ما كثر السؤال عنه . وقد حداني علو الموضوع وسمو منزلة الرسالة منه -

الى الاجتهاد في نقلها من لغتها الى اللغة العربية فتم لي ذلك بمساعدة عارف أفندي الافغاني تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة انشاء الله وإنا نذكر ترجمة الرقيمين مبتدئين برقيم مولوي محمد واصل وهو

١٩ محرم سنة ١٢٩٨ ﴿ بعد رسوم المخاطبة ﴾

يقرع آذاننا في هذه الايام صوت نيشر نيشر وانه ليصل الينا من جميع الاقطار الهندية فمن الممالك الغربية والشمالية و﴿ أوده ﴾ و ﴿ بنجاب ﴾ و﴿ بنجالة ﴾ و ﴿السند﴾ و ﴿ حيدار آباد الدكن ﴾ ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب ﴿ نيشريٌ ﴾ ويظهر لنا ان من تطلق عليهم هذا اللقب ينموا عددهم على امتداد الزمان خصوصا بين المسلمين ولقد سألت أكثر من لاقيت من هذه الطائفة . ما حقيقة النيشرية . وفى أي وقت كان ظهور النيشريين . وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا ان تقوّم عماد المدنية ولا تعدو هذا المقصد أولها مقاصد أخرى . وهل طريقتهم تنافي أصول الدين المطلق أو هى لا تعارضه بوجه ما . وأي نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين في عالم المدنية والهيئة الاجتماعية الانسانية . فان كانت هذه الطريقة من النحل القديمة فلم لم تنشر بيننا ولم نعهد لها دعاة الا في هذه الاوقات . وان كانت جديدة فما الغاية من احداثها وأي أثر يكون عن الاخذ بها

ولكن لم يفدن أحد منهم عما سألت بجواب شاف كاف ولهذا التمس من جنابكم العالي ان تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل

ينقع الغلة ويشفي العلة والسلام اه

وهــذا رقيم السـيد جمال الدين الحسيني الافغاني جوابا عن الرقيم السابق محي العزيز

النيشر اسم للطبيعة وطريقـة النيشر هي تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت ببلاد اليونان فى القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ومقصد ارباب هـذه الطريقة محو الاديان ووضع أساس الاباحة والاشتراك في الاموال والابضاع بين الناس عامة وقد كدحوا لاجراء مقصـدهم هذا وبالغوا فى السعي اليه وتلوّنوا لذلك في الوانـ مختلفة وتقلبوا في مظاهر متعددة وكيفما وجدوا في أمة افسدوا أخلاقها وعاد عليهم سعيهم بالزوال

وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة تجلى له ان لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الانسانية . اذ لا ريبة في ان الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي ولن يستحكم اساس للتمدن بدون الدين البتة . وأوّل تعليم لهذه الطائفة اعدام الاديان وطرح كل عقد ديني

وأما عدم شيوع هـذه الطريقة وقله سلاكها مع طول الزمن على نشأتها فسببه ان نظام الالفة الانسانية وهو من آثار الحكمة الالهية السامية كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشريعتها الفاسدة وبهذا السر الالهي إنبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها ومن هذا لم يسبق لهم ثبات قدم ولم تقم لهم قائمة أمر ولا في وقت من الاوقات

ولتفصيل ما ذكرنا نتقدم لانشاء رسالة صغيرة ارجوان تكون مقبولة

عند العقل الغريزي لذلك الصديق الفاضل وان تنال من ذوى العقول الصافية نظرة الاعتبار

وهذه هى الرسالة

حقيقة مذهب النيشرية والنيشريين وبيان حالهم

بسم الله الرحمن الرحيم

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب

الدين قوام الأمم وبه فلاحها . وفيه سعادتها وعلية مدارها .

النيشرية جرثومة الفساد . وأرومة الأداد . وخراب البلاد . وبها هلاك العباد .

شاع لفظ النيشرية حتى طبق البلاد الهندية في هذه الايام واصبحت هذه الكلمة دائرة في المحافل سيارة في المجامع وللعامة والخاصة فيها مذاهب وهم وطرائق وهم . فالغالب منهم يخبط على بعد من حقيقتها في غفلة عن اصل وضعها لهذا رأيت من الحق ان اشرح مفهومها وا كشف المراد منها وارفع الستار عن حال النيشريين من بداية أمرهم وأعرض للناظرين شيئا من مفاسدهم وما لحقوا بالنوع الانساني من المضار التي خبث اثرها وساء ذكرها مستنداً في ذلك على التاريخ الصحيح آخذاً من البرهان العقلي بدليل

يثبت أن هذه الطائفة على اختلاف مظاهرها لم يفش رأيها فى أمة من الامم الا كان سبباً فى اضمحلالها وانقراضها

أثبت ثقاة المؤرخين ان حكماء اليونان انقسموا فى القرن الرابع والثالث قبل المسيح الى فئتين . ذهبت احداهما الى وجود ذات مجردة عن المادة والمدة مخالفة للمحسوسات في لوازمها منزهة عن لواحق الجسمانية وعوارضها وأثبتت ان سلسلة الموجودات مادية ومجردة تنتهى الى موجود مجرد واحد من جميع الوجوه مبرأ الذات عن التأليف والتركيب ومحال عند العقل تصور التركيب فيه . وجوده عين حقيقته وحقيقته عين وجوده وهو المصدر الاول والموجد الحقيقي والمبدع لجميع الكائنات مجردة كانت او مادية . واشتهرت هذه الطائفة . بالمتألهين «الخاضعين لله» ومنهم فيثاغورث وسوقراط وافلاطون وأرسطو ومن أهل مذهبهم كثير . وذهبت أخرى الطائفتين الى نفي كل موجود سوى المادة والماديات وأن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئاً وراءه وعرفت هذه الطائفة . بالماديين . ولما سئلوا عن منشأ الاختلاف في صور المواد وخواصها والتنوع الواقع في آثارها نسبه الاقدمون منهم الى طبيعتها . واسم الطبيعة فى اللغة الفرنسوية « ناتور » وفي الانكليزية « نيشر » ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيين . وعند الفرنساويين باسم « نتوراليسم » أو « ماتيرياليسم » الاول من حيث هى طبيعية والثاني من حيث هى مادية

ثم اختلف هؤلاء بعد اعتماد أصلهم هذا في تكون الكواكب

وتصوير الحيوانات وانشاء النباتات فذهب فريق منهم الى ان وجود الكائنات العلوية والسفلية ونشأة المواليد على مانرى انما هو من الاتفاق وأحكام الصدفة وعلى ذلك اتقان بنائها وإحكام نظامها لامنشأ له الا الصدفة . كانما أدت بهم سخافة الفهم الى تجويز الترجيح بلا مرجح وقد أحالته بداهة العقل

ورأس القائلين بهذا القول ديمقراطيس . ومن رأيه ان العالم اجمع أرضيات وسماويات مؤلف من أجزاء صغار صلبة متحركة بالطبع ومن حركتها هذه ظهرت أشكال الاجسام وهيئاتها بقضاء العماية المطلقة

وذهب فريق آخر الى ان الاجرام السماوية والكرة الارضية كانت على هيئتها هذه من ازل الآزال ولا نزال ولا ابتداء لسلسلة النباتات والحيوانات وزعموا ان في كل بزرة نباتا مندمجاً فيها وفي كل نبات بزرة كامنة ثم في هذه البزرة الكامنة نبات وفيه بزرة الى غير النهاية وعلى هذا زعموا ان في كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيوانا تام التركيب وفي كل حيوان كامن في الجرثومة جرثومة أخرى يذهب كذلك الى غير نهاية

وغفل أصحاب هذا الزعم عما يلزمه من وجود مقادير غير متناهية في مقدار متناه وهو من المحالات الأولية

وزعم فريق ثالث ان سلسلة النباتات والحيوانات قديمة بالنوع كما ان الاجرام العلوية وهيئاتها قديمة بالشخص ولكن لاشيء من جزئيات الجراثيم الحيوانية والبزور النباتية بقديم وانما كل جرثومة وبزرة هي بمنزلة قالب يتكون فيه مانشا كله من جرثومة وبزرة أخرى

وفاتهم ملاحظة أن كثيراً من الحيوانات الناقصة الخلقة قد يتولد عنها حيوان تام الخلقة وكذلك الحيوان التام الخلقة قد يتولد عنه ناقصها أو زائدها

ومال جماعة منهم الى الابهام في البيان فقالوا ان أنواع النباتات والحيوانات تقلبت في أطوار وتبدلت عليها صور مختلفة بمرور الزمان وكرور الدهور حتى وصلت الى هيئاتها وصورها المشهودة لنا وأول النازعين الى هذا الرأي «ايقور» أحد اتباع «ديوجينس الكلبي» ومن مزاعمه ان الانسان في بعض أطواره كان مثل الخنزير مستور البشرة بالشعر الكثيف ثم لم يزل ينتقل من طور الى طور حتى وصل بالتدريج الى ما نراه من الصورة الحسنة والخلق القويم ولم يقم دليلا ولم يستند على برهان فيما زعمه من ان مرور الزمان علة لتبدل الصور وترقي الانواع

ولما كشفت علوم الجيولوجيا «طبقات الارض» عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين عنه الى القول بالحدوث ثم اختلفوا في بحثين . الاول بحث تكوُّن الجراثيم النباتية والحيوانية فذهب جماعة الى ان جميع الجراثيم على اختلاف أنواعها تكونت عند ما أخذ التهاب الارض في التناقص ثم انقطع التكوُّن بانقضاء ذلك الطور الارضي وذهبت أخرى الى ان الجراثيم لم تزل تتكون حتى اليوم خصوصاً في خط الاستواء حيث تشتد الحرارة

وعجزت كلتا الطائفتين عن بيان السبب لحياة تلك الجراثيم حياة نباتية أو حيوانية خصوصاً بعد ما تبين لهم ان الحياة فاعلٌ في بسائط الجراثيم موجب لالتئامها حافظ لكونها وان قوتها الغاذية هي التي تجعل

غير الحي من الاجزاء حياً بالتغذية فاذا ضعفت الحياة ضعف تماسك البسائط وتجاذبها ثم صارت الى الانحلال

وظن قوم منهم ان تلك الجراثيم كانت مع الارض عند انفصالها عن كرة الشمس وهو ظن عجيب لا ينطبق على أصلهم من ان الارض عند الانفصال كانت جذوة نار ملتهبة وكيف لم تحترق تلك الجراثيم ولم تمح صورها في تلك النيران المستعرة

والبحث الثاني من موضع اختلافهم صعود تلك الجراثيم من حضيض نقصها الى ذروة كمالها وتحولها من حالة الخداج (النقص) الى ما نراه من الصور المتقنة والهيئات المحكمة والبنى الكاملة . فمنهم قائل بان لكل نوع جرثومة خاصة به ولكل جرثومة طبيعة تميل بها الى حركة تناسبها في الاطوار الحيوية وتجتذب اليها ما يلائمها من الاجزاء الغير الحية ليصير جزءًا لها بالتغذية ثم تجلوه بلباس نوعه . وقد غفلوا عما اثبته التحليل الكيماوي من عدم التفاوت بين نطفة الانسان ونطفة الثور والحمار مثلا وظهور تماثل النطف في العناصر البسيطة . فما منشأ التخالف في طبائع الجراثيم مع تماثل عناصرها . ومنهم ذاهب الى ان جراثيم الانواع كافة خصوصاً الحيوانية متماثلة في الجوهر متساوية في الحقيقة وليس بين الانواع تخالف جوهري ولا انفصال ذاتي ومن هذا ذهب صاحب هذا القول الى جواز انتقال الجرثومة الواحدة من صورة نوعية الى صورة نوعية أخرى بمقتضى الزمان والمكان وحكم الحاجات والضرورات وقضاء سلطان القواسر الخارجية

ورأس القائلين بهذا القول ﴿ دروين ﴾ وقد ألف كتاباً في بيان

ان الانسان كان قردًا ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى الى برزخ ﴿ أوروان أوتان ﴾ ثم ارتقي من تلك الصورة الى أول مراتب الانسان فكان صنف اليميم وسائر الزنوج ومن هناك عرج بعض افراده الى أفق أعلى وأرفع من أفق الزنجيين فكان الانسان القوقاسي

وعلى زعم دروين هذا يمكن ان يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وان ينقلب الفيل برغوثاً كذلك

فان سئل دروين عن الاشجار القائمة في غابات الهند والنباتات المتولدة فيها من ازمان بعيدة لايحددها التاريخ الا ظناًوأصولهاتضرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد وعروقهاتسقى بماء واحد فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيته واشكال أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره فأي فاعل خارجي أثر فيها حتي خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء. اظن لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه .

وان قيل له هذه الاسماك بحيرة أورال وبحر كسين مع تشاركها في المأكل والمشرب وتسابقها في ميدان واحد نرى فيها اختلافا نوعياً وتبايناً بعيداً في الالوان والاشكال والاعمال فما السبب فى هذا التباين والتفاوت فلا أراه يلجأ فى الجواب الا الى الحصر (بالتحريك العجز عن الكلام)

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والقوى والخواص وهى تعيش في منطقة واحدة ولا تسلم حياتها في سائر المناطق

أو الحشرات المتباينـة في الخلقة المتباعدة في التركيب المتولدة في بقعـة واحدة ولا طاقة لها على قطع المسافات البعيـدة لتجلو الى تربة تخالف تربتها فماذا تكون حجته في علة اختلافها . كأنها تكون كسفا لا كشفا

بل اذا قيل له أيّ هاد هـدى تلك الجراثيم في نقصها وخـداجها واي مرشد ارشدها الى استتمام هذه الجوارح والاعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وايداع كل منها قوة على حسبه ونوطها بكل قوة في عضو أداء وظيفة وايفاء عمل حيوي مما عجز الحكماء عن درك سره ووقف علماء الفسولوجيا دون الوصول الى تحديد منافعه وكيف صارت الضرورة العمياء معلما لتلك الجراثيم وهادياً خبيراً لطرق جميع الـكمالات الصورية والمعنوية لا ريب انه يقبع قبوع القنفذ وينتكس بين امواج الحيرة يدفعه ريب ويتلقاه شك الى أبد الآبدين

وكأني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الأوهام ومهامه الخرافات الأقرب المشابهة بين القرد والانسان وكأنّ ما أخذ به من الشبه الواهية الهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية وانا نورد شيئاً مما تمسك به

فمن ذلك ان الخيل في سيبريا وبلاد الروسية اطول واغزر شـعرا من الخيل المتولدة في البلاد العربية وانما علة ذلك الضرورة وعدمها

ونقول ان السبب فيما ذكره هو عين السبب لـكثرة النبات وقلته في بقعة واحدة لوقتين مختلفين حسب كثرة الامطار وقلتها ووفور المياه ونزورها أوهو علة النحافة ودقة العود في سكان البلاد الحارة والضخامة والسمن في أهل البلاد البـاردة بمـا يعتري البـدن من كثرة التحلل في الحرارة وقلته في البرودة

ومن واهياته ما كان يرويه (دروين) من ان جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم فلما واظبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذناب كانه يقول حيث لم تعد للذنب حاجة كفت الطبيعة عن هبته . وهل صمت أذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان الوفاً من السنين لا يولد مولود حتى يختن والى الآن لم يولد واحد منهم مختوناً الا لاعجاز

ولما ظهر لجماعة من متأخري الماديين فساد ماتمسك به اسلافهم نبذوا آراءهم وأخذوا طريقا جديدة فقالوا ليس من الممكن ان تكون المادة العارية عن الشعور مصدرا لهذا النظام المتقن والهيئة البديعة والاشكال المعجبة والصور الانيقة وغير ذلك مما خفي سره وظهر اثره ولكن العلة في نظام الكون علوية وسفلية والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوارها وما يلزم لبقائها تتركب من ثلاثة أشياء ﴿ متيير ﴾ و﴿ فورس ﴾ و﴿ انتليجانس ﴾ أى مادة وقوة وادراك

وظنوا ان المادة بما لها من القوة وما يلابسها من الادراك تجلت وتتجلى بهذه الاشكال والهيئات وعند ماتظهر بصور الاجساد الحية نباتية كانت أوحيوانية تراعي بما لابسها من الشعور مايلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع فتنشئ لها من الاعضاء والآلات مايفي بأداء الوظائف الشخصية والنوعية مع الالتفات الى الازمنة والامكنة والفصول السنوية . هذا أنفس ماوجدوا من حلية لمذهبهم العاطل بعد مادخلوا ألف جحر وخرجوا من ألف نفق وما هو باقرب الى العقل من سائر أوهامهم ولاهو بالمنطبق

على سائر أصولهم فانهم يرون كسائر المتأخرين ان الاجسام مركبة من الأجزاء الديمقراطيسية ٠ ولا ينطبق رأيهم الجديد في علة النظام الكوني على رأيهم في تركب الأجسام

وذلك لانه يلزم على القول بشعور المادة أن يكون لكل جزء ديمقراطيسي شعور خاص كما يلزم ان تكون له قوة خاصة ينفصل بهما عن سائر الاجزاء اذ لا يمكن قيام العرض الواحد وحدة شخصية بمحلين فلا يقوم علم واحد بجزئين ولا بأجزاء

وبعد هذا فاني سائلهم كيف اطلع كل جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الاجزاء وبأية آلة أفهم كل منها باقيها ماينويه من مطلبه وأيّ برلمان «مجلس الشورى» أو أيّ سنات «مجلس الشيوخ» عقدت للتشاور في ابداع هذه المكوّنات العالية التركيب البديعة التأليف وأنى لهذه الاجزاء ان تعلم وهي في بيضة العصفور ضرورة ظهورها في هئة طيرياً كل الحبوب فمن الواجب ان يكون له منقار وحوصلة لحاجته في حياته اليهما واذا كانت في بيض الشاهين والعقاب فمن اين لها العلم بانها تقوّم طيراً يأ كل اللحوم فلابدله من منسر ومخلاب يصول بهما في الصيد لاقتناص مايحتاج اليه من حيوان ثم ينسر لحمه ليأ كله

ومن اين لها ان تعلم وهي في مشيمة الكلبة انها ستكون على صورة انثى الجرو ثم تكبر حتى تبلغ حد الادراك ثم تكون حبلى لوقت من الاوقات وقد تلد أجراء متعددة في زمن واحد فهي تهيأ لطبيها حلمات كثيرة على حسب حاجة اجرائها ومن لهذه الاجزاء المتبددة ان تدرك حاجة الحيوانات الى القلب

والرئة والمخ والمخيخ وسائر الاعضاء والجوارح . لو عقلت هـذه الطائفة ما رمي اليه سؤالي هـذا لارتكست في أفكارها وانقلبت الى تيهور من الحيرة لا ترفع منه رأساً ولا تحير جوابا الى ان يتخبطهم شيطان الجهل فيقولون ولا يعون ان لكل جزء من هذه الاجزاء الديمقراطيسية علما بجميع ما كان وما يكون وبجميع ما في العالم من الاجزاء علويا كان او سفليا ولكل منها حرص على مراعاة نظام الكون واركانه فيتحرك كل منها للانضمام الى الآخر على وفق ما يريده من المصلحة حتى لا يقع الخلل في شيء من نظم العالم عاماً كان أو خاصاً وبهـذا قام العالم على ناموس واحد

فان افضت بهم العماية الى هذا القول قلنا أولا يلزمهم ان كل جزء ديمقراطيسي يحتوي على ابعاد غير متناهية وهو في صغره لا يدرك ولا بالمكرسكوب « النظارة المعظمة » وبيان اللزوم ان العلم عندهم انما هو بارتسام الصور المعلومة في ذات العالم وهو مادي في موضوعنا فكل صورة معلومة تأخذ منه بعداً بمقدارها والصور العلمية على هذا الزعم غير متناهية وكلها يرتسم في مادة الجزء العالم فيكون في كل جزء وهو متناه الي غاية الصغر أبعاد غير متناهية للصور الغير المتناهية وهذا مما تبطله بداهة العقل

وثانياً ان كانت الاجزاء الديمقراطيسية بالغة من العلم هـذا المبلغ وهى من القوة على نحوه اذ لا قوة الا بها على رأيهم فلم لم تبلغ الكائنات وهي هي غاية ما يمكن لها من الكمال ولم تنزل بذواتها الآلام والاوصاب ثم تعاني العناء في احتمالها او التخلص منها ولم قصر ادراك الانسان وادراك سائر الحيوانات وهو عين ادراك هذه الاجزاء على هذا المذهب عن

اكتناه حالها انفسها وعجز عن حفظ حياتها

واعجب من هذا ان المتأخرين من الماديين بعد ما صافحوا كل خرافة لتأييد مذهبهم حاصوا الى الحيرة في بعض الامور فلم يستطيعوا تطبيقها على اصل من أصولهم الفاسدة لا أصل الطبع ولا أصل الشعور وذلك عند ماراأوا شيئين يختلفان في الخواص وعناصرهما تظهر عند التحليل متماثلة ولم يجدوا المحيص عن الوقفة بعدماقدموا من الترهات الا بالحكم على الاجزاء الديمقراطيسية رجماً بالغيب بانها ذوات أشكال مختلفة وعلى حسب الاختلاف في الاشكال والاوضاع كان الاختلاف في الآثار والخواص

وبالجملة فهذه عشرة مذاهب اختلف اليها منكروا الالوهية الزاعمون ان لا وجود للصانع الاقدس وهم المعرفون بين شيعهم اوعند الالهيين بالطبيعيين والماديين والدهريين وان شئت قلت نيشريين ونأتور اليسميين وما تيير اليسميين وسنأتي على تفصيل مذاهبهم ودحض حججها بالبينات العقلية في رسالة أوسع من هذه ان شاء الله تعالى

ولا يظنن ظان أنا نقصد من مقالنا هذا تشنيعاً بهؤلاء (البياجوات) الهنديين (البياجوا اسم ايطالياني اشتهر في الهند لمن يقلد الماهر في اللعب بحركات غير منسقة لاضحاك الناظرين ويعبرعنه في العربية بالخلابيس واصله الشيء لانظام له والطبيعيون في الهند يمثلون احوال الدهريين في أوربا تمثيلا مضحكاً) كلا ان هؤلاء لانصيب لهم من العلم بل ولا من الانسانية فهم بعيدون من مواقع الخطاب ساقطون عن منزلة اللوم والاعتراض . نعم لو أريد انشاء تياترو «ملهى» او «كطبتلى»

﴿ نوع من اللعب يشخصون فيه أحوال ملوك الهند الاقدمين ﴾ لتمثل فيه أحوال الأمم المتمدنة مست الحاجة الى هؤلاء لاقامة هذه الألاعيب وانما غرضنا الاصلى اعلان الحق واظهار الواقع والآن نعتمد الشروع فى بيان المفاسد التى جلبها الماديون ﴿ النيشريون ﴾ على نظام المدنية والمضار التى تضعضع لها بناء الهيئة الاجتماعية وكان منشاؤها فشو أفكارهم

﴿ مظاهر الماديين ومقاصدهم ﴾

تخالفت مظاهر الماديين في الامم والاجيال المختلفة فتخالفت اسماؤهم فكانوا تارة يسمون أنفسهم بسمات الحكما وينتحلون الحكيم لقباً لافرادهم. وأحياناً كانوا يتسمون بسيما دافع الظلم ورافع الجور. وكثيراً ما تقدموا لمسارح الانظار تحت لباس عرّاف الاسرار وكشفة الحقائق والرموز والواصلين من كل ظاهر الى باطنه ومن كل بارز الى كامنه وقد كانوا يظهرون فى أوقات بدعوى السعي فى تطهير الاذهان من الخرافات وتنوير العقول بحقائق المعلومات. وتارات يتمثلون فى صور محبي الفقراء وحماة الضعفاء وطلاب خير المساكين . وكثر ما تجرأوا على دعوى النبوة ولكن لا على سنن سائر المتنبئين الكذبة كل ذلك توسلا لاجراء مقاصدهم وترويج مفاسدهم

كيفما ظهر الماديون وفى أي صورة تمثلوا وبين أيّ قوم نجموا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم وصدعا متفاقما فى بنية جيلهم يميتون القلوب الحية باقوالهم وينفثون السم فى الارواح بآرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم فما رزئت بهم أمة ولا منى بشرهم جيل الا انتكث فتله وسقط عرشه وتبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها

كان الانسان ظلوماً جهولا • خلق الانسان هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً • جبل الانسان على الحرص وكانه منهوم لشرب الدماء • لم يحرم الانسان من لطف مبدعه فكما أبدعه ألزم الدين وجوده فتمسك الناس منه بأصول وانطبعوا به على خصال توارثها الابناء عن الآباء في قرون بعد قرون ومهما غيروا وبدلوا كانت بقايا ما ورثوه لا تزال تشرق على عقولهم بانوار من المعرفة يهتدون بها الى سعادتهم ويقيمون في ضوئها أساس مدنيتهم ولم يبطل أثرها فى تعديل اخلاقهم وكف أيديهم عن التطاول الى الشرور والمفاسد وبهذا كان للاقدمين من أهل القرون الاولى ما كان لهم من نوع الثبات والبقاء

وطائفة النيشرية كلما ظهرت في أمة سعت في قلع تلك الاصول وأفساد تلك الخصال حتي اذا لمع لها بارق من النجاح وهت أركان الامة وانهارت الى هوّاءة الاضمحلال والعدم وهذه الطائفة هى الان كما كانت تسلك منهج أسلافها الاولين وأنا نوضح ذلك بمجمل من البيان

﴿ ما أفاد الدين من العقائد والخصال ﴾

اكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال كل منها ركن لوجود الامم وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى الى ذري السعادة ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارفة الفساد ويصدها عن مقاربة مايبيدها ويبددها

﴿ العقيدة الاولى ﴾ التصديق بان الانسان ملك أرضي وهو أشرف

المخلوقات ﴿ والثانيـة ﴾ يقين كل ذي دين بان أمته أشرف الامم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل ﴿ والثالثة ﴾ جزمه بان الانسان انما ورد هـذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هـذا العالم الدنيوي والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات جديرة أن تسمي بيت الاحزان وقـرار الآلام الى دار فسيحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضي سعادتها ولا تنتهي مدتها

لا يغفل العاقل عما يتبع هـذه العقائد الثلاث من الآثار الجليلة في الاجتماع البشري والمنافع الجمة في المدنية الصحيحة ومايعود منها بالاصلاح على روابط الامم وما لكل واحدة من الدخل في بقاء النوع والميل بافراده لان يعيش كل منهـم مع الآخر بالمسالمة والمـوادعة والاخـذ بهم الامم للصعود في مراقي الكمال النفسي والعقلي

من البين ان لكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها . فما يلزم الاعتقاد بان الانسـان اشرف المخـلوقات ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية واستنكافه عن ملابسة الصـفات الحيوانية ولا ريب انه كلما قوي الاعتقاد اشتد به النفور من مخالطة الحيوانات في صفاتها وكلما اشتد هذا النفور سما بروحـه الى العالم العقلي وكلما سما عقله أوفي على المدنيـة وأخذ منها باوفر الحظوظ حتى قد ينتهي به الحال الى ان يكون واحداً من أهل المدنية الفاضلة يحيي مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة وتلك نهاية السعادة الانسانية في الدنيا وغاية مايسمى اليه العقلاء والحكماء فيها

فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية في معيشتها والثيران البريّة في حالتها ومضاربة البهائم السائمة والدواب الهاملة والهوام الراشحة لاتستطيع دفع مضرة ولا التقية من عادية ولا تهتدي طريقاً لحفظ حياتها وتقضى آجالها في دهشة الفزع ووحشة الانفراد

هذه العقيدة أشدُّ زاجر لابناء الانسان عن التقاطع المؤدي لافتراس بعضهم بعضاً كما يقع بين الاسود الكاسرة والوحوش الضارية والكلاب العاقرة وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات في خسائس الصفات وهذه العقيدة أحجى حادٍ للفكر في حركاته وأنجح داع للعقل في استعمال قوته واقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يعتقدون هذا الاعتقاد بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل والى أيّ حدّ تصل بهم الشرور وبأيّ منزلة من الدناءة تكون نفوسهم وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية

ومن خواص يقين الامة بانها أشرف الامم وجميع من يخالفها على الباطل أن ينهض آحادها لمكاثرت الامم في مفاخرها ومساماتها في مجدها ومسابقتها في شرائف الامور وفضائل الصفات وان يتفق جميعها على الرغبة في فوت جميع الامم والتقدم عليها في المزايا الانسانية عقلية كانت او نفسية ومعاشية كانت او معادية وتأبي نفس كل واحد عن اعطاء الدنية والرضي بالضيم لنفسه او لاحد من بنى أمته ولا يسره أن يرى شيئاً من العزة او مقاما من الشرف لقوم من الاقوام حتى يطلب لامته

افضله واعلاه . ذلك انه بهـذا الاعتقـاد يري ابناء قومه اليق واجـدر بكل ما يعدّ شرفا انسانيا

فان جارت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم أو ثلمت مجدهم أو سلبتهم مزية من مزايا الفضل لم تستقر له راحة ولم تنشأ له حميـة ولم يسكن له جيشان فهو يمضي حياته في علاج ما ألمّ بقومه حتي يأسوه أو يموت في أساه

فهذه العقيدة أقوى دافع للامم الى التسـابق لغايات المدنية وأمضى الاسباب بها الى طلب العلوم والتوسع في الفنـون والابداع في الصنائع وانها لابلغ في سوق الأمم الى منازل العلاء ومقـاوم الشرف من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل

وان أردت فالمح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ماذا تجد من فتور في حركات آحادهم نحو المعالي وماذا ترى من قصور في هممهم عن درك الفضائل وماذا ينزل بقواهم من الضعف وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة والى أى هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصاً اذا بغي عليهم الجهل فظنوا أنهم ادنى من سـائر الملل كطائفة ﴿ الدهير ﴾ و﴿ مانك ﴾

ومن مقتضيات الجزم بأن الانسان ما ورد هذا العالم الا ليتزود منه كمالا يعرج به الى عالم أرفع ويرتحـل به الى دار أوسع وجناب أمرع لمرع واديه وتجنى حلبه أن من أشربت هذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمهـا وينساق بحاديها لاضاءة عقله بالعلوم الحقـة والمعارف الصافية خشية أن يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ثم ينصرف همه لابرازما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والخواص الجليلة باستعمالهـا فيما

خلقت له فينجلي كماله من عالم الكمون الى عالم الظهور ويرتقي من درجة القوة الى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته في تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ولا يناله التقصير في تقويم ملكاته النفسية وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة متنكبا عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة معرضاً عن أبواب الرشوة مترفعا عن الملق الكلبي والخداع الثعلبي ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذي يليق وعلى الوجه الذي ينبغي وبالقدر الذي ينبغي لا يأتي فيه باطلا ولا يغفل حقاً عاما أو خاصا

فهذه العقيدة احكم مرشد واهدى قائد للانسان الى المدنية الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة والاخلاق الفاضلة وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لا عماد لها الا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه والقيام على صراط العدل المستقيم هذا الاعتقاد انجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم اذ لا عقد لها الا مراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود المعاملات. هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الازلية تهب على القلوب ببرد الهدون والمسالمة فان المسالمة ثمرة العدل والمحبة والعدل والمحبة زهر الاخلاق والسجايا الحسنة وهي غراس تلك العقيدة التي تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور وتنجيه من متاثه الشقاء وتعاسة الجد وترفعه الى غرف المدنية الفاضلة وتجلسه على كرسي السعادة

وقد يسهل عليك ان تخيل جيلاً من الناس حرم هذه العقيدة فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم

الحقوق والجدال والجلاد وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة عن نور المعرفة

﴿ الخصال الثلاثة ﴾

وأما الخصال الثلاثة التي توارثتها الامم من تاريخ قد لايحدُّ قدماً وانما طبعها في نفوسهم طابع الدين (فاحداها خصلة الحياء) وهو انفعال النفس من إتيان مايجلب اللائمة ويخجي عليها بالتوبيخ وتأثرها من التلبس بما يعد عند الناس نقصاً وفي الحق أن يقال إن تأثير هذه الخلة في حفظ نظام الجمعية البشرية وكف النفوس عن ارتكاب الشنائع أشد من تأثير مئين من القوانين وآلاف من الشرط والمحتسبين فان النفوس اذا مزقت حجاب الحياء وسقطت الى حضيض الخسة والدناءة ولم تبال بما يصدر عنها من الاعمال فأيُّ عقاب يردعها عن المفاسد التي تخل بنظام الاجتماع سوى القتل وقد لاحظ ذلك ﴿ سولون ﴾ حكيم اليونان حيث جعل القتل جزاء كل عمل قبيح حتى الكذبة الواحدة

وخلة الحياء يلازمها شرف النفس وهو مما تدور عليه دائرة المعاملات وتتصل به سلسلة النظام وهو مناط صحة العقود والتزام أحكامها وهو معصم الوفاء بالعهود وهو رأس مال الثقة بالانسان في قوله وعمله وشيمة الحياء هي بعينها شيمة الآباء وسجية الغيرة وانما تختلف اسماؤها باختلاف جهاتها وآثارها في ردع النفس عن شيء او حملها على عمل والأباء والغيرة هما مبعث حركات الامم والشعوب لاستفادة العلوم والمعارف وتسنم قمم الشرف والرفعة وتقوية الشركة وبسط جناح العظمة وتوفير مواد الغنى والثروة وكل امة فقدت الغيرة والأباء حرمت الترقي وإن تسني لها من

اسبابه ماتسني فهي تعطى الدنية ولا تأنف من الخسة وتضرب عليها الذلة والمسكنة حتي ينقضي أجلها من الوجود . ملكة الحياء تنتهي اليها روابط الالفة بين آحاد الامة في معاشراتهم ومخالطاتهم فان حبال الالفة انما يحكمها حفظ الحقوق والوقوف عند الحدود ولا يكون ذلك الا بهذه الملكة الكريمة . هذه سجية تزين صاحبها بالآداب وتنفر به عن الشهوات البهيمية وتفيض روح الاعتدال على حركاته وسكناته وجميع أعماله هذا هو الخلق الفرد الذي ينهض بصاحبه لمجاراة أرباب الفضائل ويتجافى به عن مضاجع النقائص ويأنف به عن الرضاء بالجهل والغباوة أو الضعة والضراعة . هذا الوصف الكريم هو منبت الصدق ومغرس الامانة وهما معه في قرن . هذا الوصف هو آلة المعلمين والقائمين على التربية والدعاة لمكارم الاخلاق والمولعين بترقية الفضائل صورية ومعنوية يستعملونها في نصائحهم يذكرون بها الغافل ويحرضون الناكل ويوقظون النائم ويقعدون القائم ألا ترى المعلم الحكيم كيف يعظ تلميذه بقوله ألا تستحي من تقدم قرينك عليك وتخلفك عنه فان لم تكن هذه الخصلة فلا أثر للتوبيخ ولا نفع للتقريع ولا نجاح للدعوة فانكشف مما بينا أن هذه الخلة مصدر لجميع الطيبات ومرجع لكل فضيلة وسلم لكل ترقٍ

ويمكن لنا ان نفرض قوماً هجر الحياء نفوسهم فماذا نرى فيهم سوى المجاهرة بالفحشاء والمنافسة في المنكر وشوس الطباع وسوء الاخلاق والاخلاد الى دنيات الامور وسفاسف الشؤون وكفى بمشهدهم شناعة أن نرى تغلب الشهوات البهيمية عليهم وتملك الصفات الحيوانية

لارادتهم وتسلطها على أفعالهم

﴿ والخصلة الثانية الامانة ﴾ من المعلوم الجلي أن بقاء النوع الانساني قائم بالمعاملات والمعاوضات في منافع الاعمال وروح المعاملة والمعاوضة انما هي الامانة فان فسدت الأمانة بين المتعاملين بطلت صلات المعاملة وانبترت حبال المعاوضة فاختل نظام المعيشة وأفضى ذلك بنوع الانسان الى الفناء العاجل

ثم من البين أن الأمم في رفاهتها والشعوب في راحتها وانتظام أمر معيشتها محتاجة الى الحكومة بأي أنواعها إما جمهورية أو ملكية مشروطة أو ملكية مقيدة والحكومة في أي صورها لاتقوم الا برجال يلون ضروباً من الاعمال فنهم حرّاس على حدود المملكة يحمونها من عدوان الاجانب عليها ويدافعون الوالج في ثغورها وحفظة في داخل البلاد يأخذون على أيدي السفهاء ممن يهتك ستر الحياء ويميل الى الاعتداد من فتك أوسلب أو نحوهما ومنهم حملة الشرع وعرفاء القانون يجلسون على منصات الاحكام لفصل الخصومات والحكم في المنازعات ومنهم أهل جباية الاموال يحصلون من الرعايا مافرضت عليهم الحكومة من خراج مع مراعاة قانونها في ذلك ثم يستحفظون مايحصلون في خزائن المملكة وهي خزائن الرعايا في الحقيقة وان كانت مفاتيحها بأيدي خزنتها ومنهم من يتولى صرف هذه الاموال في المنافع العامة للرعية مع مراعاة الاقتصاد والحكمة كانشاء المدارس والمكاتب وتمهيد الطرق وبناء القناطر واقامة الجسور واعداد المستشفيات ويؤدي أرزاق سائر العاملين في شؤون الحكومة من الحراس والحفظة

وقضاة العدل وغيرهم حسبما عين لهم وهذه الطبقات من رجال الحكومة الوالين على أعمالها انما تؤدي كل طبقة منها عملها المنوط بها بحكم الامانة فان خزيت امانة أولئك الرجال وهم أركان الدولة سقط بناء السلطة وسلب الأمن وزاحت الراحة من بين الرعايا كافة وضاعت حقوق المحكومين وفشا فيهم القتل والتناهب ووعرت طرق التجارة وتفتحت عليهم ابواب الفقر والفاقة وخوت خزائن الحكومة وعميت على الدولة سبل النجاح فان حزبها أمر سدت عليها نوافذ النجاة ولا ريب ان قوما يساسون بحكومة خائنة إما أن ينقرضوا بالفساد واما ان يأخذهم جبروت أمة أجنبية عنهم يسومونهم خسفاً ويستبدون فيهم عسفاً فيذوقون من مرارة العبودية ما هو أشد من مرارة الانقراض والزوال

ومن الظاهر ان استعلاء قوم على آخرين انما يكون باتحاد آحاد العالين والتئام بعضهم ببعض حتي يكون كل منهم لبنية قومه كالعضو للبدن ولن يكون هذا الاتحاد حتى تكون الامانة قد ملكت قيادهم وعمت بالحكم افرادهم

فقد كشف الحق ان الامانة دعامة بقاء الانسان ومستقر اساس الحكومات وباسط ظلال الأمن والراحة ورافع ابنية العز والسلطان وروح العدالة وجسدها ولا يكون شيء من ذلك بدونها

واليك الاختيار في فرض أمة عطلت نفوسها من حلية هذه الخلة الجليلة فلا تجد فيها الا آفات جائحة ورزايا قاتلة وبلايا مهلكة وفقرا معوزا وذلا معجزا ثم لا تلبث بعد هذا كله ان تبتلعها بلاليع العدم وتلتهمها امهات اللاهيم

﴿ الخصلة الثالثة الصدق ﴾ الانسان كثير الحاجات غير ممدود

الضرورات وكل ما يسد حاجاته ويدفع ضروراته وراءستار الخفاء محجوب وتحت حجاب الغيب مكنون . قذف بالانسان من غيب يجهله الى ظهور لا يعرفه فقام في بدإ نشأته في زاوية عماء لا يذكر اسما ولا يمهد رسما . هذا الانسان على ضعفه كانما أحفظ الاكوان قبل وجوده فارصدت له القتال وهيأت له النضال فله في كل مثناة منها كامنة بلية وفي كل حنو رابضة رزية وكل أفاق سهمه في قسيِّ الادوار الزمنية ليصيب مقاتل الانسان

منح الانسان خمسة مشاعر السمع والبصر والذوق واللمس ولكن لا غناء بها في هدايته لاقرب حاجاته وارشاده لدفع ما خف من ضروراته فأحجى ان لا كفاء لها فى استطلاع مكامن البلايا واكتشاف مخابئ الرزيا ليأخذ حذره ويحرز أمره فهو في حاجة كل الحاجة للاستعانة بمشاعر امثاله من بنى جنسه والاستهداء بمعارفهم ليتفادى بهدايتهم من بعض لاسعات المصائب ويصيب من الرزق ما فيه قوام معيشته وسداد عوزه والاستهداء انما يكون بالاستخبار ولا تتم فائدة الخبر في الهداية الا أن يكون من مصدر صدق يحدث عن موجود ويحكى عن مشهود والا فما الهداية في خبر لا واقع له

نعم الكاذب يرى البعيد قريباً والقريب بعيداً ويظهر النافع في صورة الضار والضار في صورة النافع فهو رسول الجهالة وبعيث الغواية وظهير الشقاء ونصير البلاء

فعلى ماتقدم تكون صفة الصدق ركناً ركيناً للوجود الانساني وعماداً للبقاء الشخصيّ والنوعيّ وموصل العلائق الاجتماعية بين آحاد

الشعوب ولا تحقق ألفة مدنية أو منزلية بدونه

وأنظر فيما اذا فقدت أمة خلة الصدق كيف ينيخ الشقاء بها رواحله وينفذ سوء البخت فيها عوامله وكيف ينتثر نظامها ويفسد التئامها

﴿ تفصيل غايات النيشريين ﴾

هؤلاء جحدة الالوهية في أي أمة وبأي لون ظهروا كانوا يسعون ولا يزالون يسعون لقلع أساس هذا القصر المسدس الشكل . قصر السعادة الانسانية القائم بستة جدران ثلاث عقائد وثلاث خصال . أعاصير أفكارهم تدكدك هذا البناء الرفيع وتلقي بهذا النوع الضعيف الى عراء الشقاء وتهبط به من عرش المدنية الانسانية الى أرض الوحشة الحيوانية

وضعوا مذاهبهم على بطلان الاديان كافة وعدوها أوهاماً باطلة ومجعولات وضعية وبنوا على هذا أن لاحق لملة من الملل ان تدعي لنفسها شرفاً على سائر الملل اعتماداً على أصول دينها بل الاليق بها على رأيهم ان تعتقد انها ليست أولى من غيرها بفضيلة ولا أجدر بمزية ولا يخفى ما يتبع هذا الرأي الفاسد من فتور الهمم وركود الحركات الارادية عن قصد المعالي كما تقدم بيانه

قالوا ان الانسان في المنزلة كسائر الحيوانات وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم بل هو أخس منها خلقة وأدنى فطرة فسهلوا بذلك على الناس اتيان القبائح وهوّنوا عليهم اقتراف المنكرات ومهدوا لهم طرق البهيمية ورفعوا عنهم معايب العدوان

ذهبوا الى انه لا حياة للانسان بعد هذه الحياة وانه لا يختلف عن النباتات

الارضية تنبت في الربيع مثلا وتيبس في الصيف ثم تعود ترابا والسعيد من يستوفى في هذه الحياة حظوظه من الشهوات البهيمية وبهذا الرأي الفاسد اطلقوا النفوس من قيد التأثم ودفعوها الى أنواع العدوان من قتل وسلب وهتك عرض ويسروا لها الغدر والخيانة وحملوها على فعل كل خبيثة والوقوع في كل رذيلة واعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشريّ وأعدموها الرغبة في كشف الحقائق وتعرُّف أسرار الطبيعة

هذا الوباء المهلك والطاعون المجتاح أعنى النيشريين ﴿ لا يصيب أهل الحياء لامتناع نفوسهم عن مشاكلة البهائم وإبائها عن وضع أقدامها في منازل الحيوانية المحضة وانفتها من الاشتراك في الاموال والابضاع واباحة التناول مما يختص بالغير منها

ولهذا عمد هؤلاء المفسدون الى خلة الحياء ليزيلوها أو يضعفوها فقالوا ان الحياء من ضعف النفس ونقصها فاذا قويت النفوس وتم لها كمالها لم يفلتها الحياء في عمل ما كائناً ما كان . فمن الواجب الطبيعي ﴿ في زعمهم ﴾ ان يسعى الانسان في معالجة هذا الضعف ﴿ الحياء ﴾ ليفوز بكمال القوة ﴿ قلة الحياء ﴾ وبهذه الدسيسة يخالطون بين الانسان والهمل ويزجونه بالهامجات من النعم ويوحدون بين حاله وتصرفه وبين حال الدواب والانعام من اباحة كل عمل والاشتراك في كل شهوة ويهونون عليه اتيان ماتأتيه في نزواتها

ولا يخفى ان الامانة والصدق منشأوهما في النفس الانسانية امر ان الايمان بيوم الجزاء وملكة الحياء وقد ظهر أن من أصول مذاهب هذه

الطائفة ابطال تلك العقيدة ومحو هذه الملكة الكريمة فيكون تأثير آرائهم في اذاعة الخيانة وترويج الكذب أشدمن تأثير دعوة داع الى نفس الخيانة والكذب . فان منشأ الفضيلتين مادام في النفس أثر منه يبعثها على مقاومة الداعي الى الرذيلتين فيضعف أثر دعوته والمؤمن بالجزاء المبرقع بالحياء ان سقط في الخيانة أوالكذب مرة وجدمن نفسه زاجراً عنهما مرة أخرى أما لو محي الايمان والحياء وهما منشأ الصدق والامانة من لوح النفس فلا يبقى منها وازع عن ارتكاب ضديهما

ويزيد في شناعة ماذهبوا اليه ان في أصولهم الاباحة والاشتراك المطلقين فيزعمون ان جميع المشتهيات حق شائع والاختصاص بشيء منها يعد اغتصاباً كما سيذكر فلم يبق للخيانة محل فان الاحتيال لنيل الحق لا يعد خيانة ومثلها الكذب . فانه يكون وسيلة للوصول الى حق مغتصب ﴿ في زعمهم ﴾ فلايعد ارتكاباً للقبيح . لاجرم ان آراء هذه الطائفة مروجة للخيانات باعثة على افتراء الاكاذيب حاملة بالانفس على ارتكاب الشرور والرذائل واتيان الدنايا والخبائث وإنّ أمة تفشو فيها هذه الحوالق لجديرة بالفناء جالية عن باحة البقاء . فقد انكشف الخفاء عما بينا عن فساد مشارب هذه الطائفة وعن وجه سوقها الامم والشعوب الى مهاوي الهلكة والدمار

وأقول انها من أشدالاعداء للنوع الانساني كافة فان ماهاج في رؤس ابنائها من الماليخوليا يخيل لهم ان الاصلاح فيما يزعمون ويصور لهم حقيقة النجاح في صور مايتوهمون فيبعثهم هذا الفساد لايقاد النار في بيت هذا

النوع الضعيف ليمحوا بذلك رسمه من لوح الوجود . فان من الظاهر عند كل ذي ادراك ان افراد هذا النوع يحتاجون في بقائهم الى عدة صنائع لو لم تكن أهلكتهم حوادث الجو وأعوزهم القوت الضروري والصنائع المحتاج اليها تختلف أصنافها وتتفاوت درجاتها فمنها الخسيس والشريف ومنها السهل ومنها الصعب وهذه الطائفة النيشرية تسعى لتقرير الاشتراك في المشتهيات ومحو حدود الامتياز ودرس رسوم الاختصاص حتى لا يعلو أحد عن أحد ولا يرتفع شخص عن غيره في شئ ما ويعيش الناس كافة على حد التساوي لا يتفاوتون في حظوظهم . فان ظفرت هذه الطائفة بنجاح في سعيها هذا ولاق هذا الفكر الخبيث بعقول البشر مالت النفوس الى الاخذ بالاسهل والافضل فلا تجد من يتجشم مشاق الاعمال الصعبة ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة طلباً للمساواة في الرفعة فان حصل ذلك اختل نظام المعيشة وتعطلت المعاملات وبطلت المبادلات وأفضى الى تدهور هذا النوع في هوّة الهلاك نعم ان أفكار المصابين بالماليخوليا لا تنتج أحسن من هذه النتيجة ولو فرضنا محالا وعاش بنو الانسان على هذه الطريقة العوجاء فلا ريب ان تمحى جميع المحاسن وضروب الزينة وفنون الجمال العملي ولا يكون لابهاء الفكر الانساني أثر ويفقد الانسان كل كمال ظاهر أو باطن صوري أو معنوي ويعطل من حلي الصنائع وتغرب عنه أنوار العلم والمعرفة ويصبح في ظلام جهل وبلاء أزل وينقلب كرسي مجده وينثل عرش شرفه ويصحر في بادية الوحشية كسائر أنواع الحيوان ليقضي فيها أجلاً قصيراً مفعما بضروب من الشقاء محاطاً بانواع من المخاوف محشواً باخلاط من الاوجال

والاهوال . فان المبدأ الحقيقي لمزايا الانسان انما هو حب الاختصاص والرغبة في الامتياز فهما الحاملان على المنافسة السائقان الى المباراة والمسابقة فلو سلبتهما افراد الانسان وقفت النفوس عن الحركة الى معالي الامور واغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات واكتناه حقائق الموجودات وكان الانسان في معيشته على مثال البهائم البرية ان أمكن له ذلك وهيهات هيهات

﴿ مسالك النيشريين في طلب غاياتهم ﴾

سلكوا مخالج من الطرق لبث أوهامهم الفاسدة . فكانوا اذا سكنوا الى جانب أمن جهروا بمقاصدهم بصريح المقال . واذا أزعجتهم سطوة العدل أخذوا طريق الرمز والاشارة وكنوا عما يقصدون ولوحوا الى مايطلبون ومشوا بين الناس مشية التدليس

وتارة كانوا يحملون على أركان القصر المسدس ليصدعوها بجملتها في آن واحد وأخرى كانوا يعمدون الى بعضها اذا رأوا قوة المانع دون سائرها فيجعلون ماقصدوا منها مرمي انظارهم ويكدحون لهدمه بما استطاعوا من حول وقوة . وقد تلجئهم الضرورة الى البعد عن الاركان الستة باسرها فلا يأتون بما يمسها مباشرة ولكنهم يدأبون لابطال لوازمها أو ملزوماتها ليعود ذلك بابطالها . وقد يكتفون بانكار الصانع جل شأنه وجحد عقائد الثواب والعقاب ويجهدون لافساد عقائد المؤمنين علما منهم بان فساد هاتين العقيدتين ﴿ الاعتقاد بالله والاعتقاد بالثواب والعقاب ﴾ لامحالة يفضي الى مقاصدهم ويؤدي الى نتيجة أفكارهم .

وكثيراً ماسكتوا عن ذكر المبادي وسقطوا على ذات المقصد وهو الاباحة والاشتراك وأخذوا في تحسينه وتزيينه واستمالة النفوس اليه وقد يزيدون على الدعوة الاقناعيـة باي وجوهها عملاً جاهليا تأنف منـه الطباع وتأباه شرائع الانسانية ذلك ان يأخـذوا معارضيهم بالغدر والاغتيال فكثيراً مافتكوا بآلاف من الارواح البريئة وأراقوا سيولا من الدماء الشريفة بطرق من الحيل وضروب من الختل

﴿ ضرر مذاهب النيشريين حتى بعقول من لايأخذ بها ﴾
— اذا خالطهم —

متى ظهر النيشريون في أمة نفذت وساوسهم في صدور الاشرار من تلك الامة واستهوت عقول الخبثاء الذين لايهمهم الا تحصيل شهواتهم ونيل لذاتهـم من أي وجه كان لموافقة هـذه الآراء الفاسدة لاهوائهم الخبيثة فيميلون معهم الى ترويج المشرب النيشري واذاعته بين العامة غير ناظرين الى مايكون من أثره . ومن الناس من لايساهمهم في آرائهم ولا يضرب في طرقهم الا أنه لايسلم من مضارها ومفاسدها فان الوهن يلم باركان عقائده والفساد يسري لاخلاقه من حيث لايشعر حيث ان أغلب الناس مقلدون في عقائدهم منقادون للعادة في أخلاقهـم وأقل التشكيك وأدنى الشبهة يكفي علة لزعزعة قواعد التقليد وضعضعة قوائم العادة . وان هؤلاء النيشريين بما يقذفون بين الناس من أباطيلهم يبذرون في النفوس بذور المفاسد فلا يلبث ان تنموا في تراب الغفلة فتكون ضريعاً وزقوماً

ولهذا قد يعم الفساد افراد الامة التي تظهر فيها هـذه الطائفة وكل

لايدرى من اي باب دس الفساد على قلبه فتشيع بينهم الخيانة والغدر والكذب والنفاق ويهتكون حجاب الحياء وتصدرعنهم شنائع تنكرها الفطرة البشرية يأتون ما يأتون من تلك القبائح مجاهرة بلا تحرج وكل منهم وان كان يدعى بلسانه انه مؤمن بيوم الجزاء وفي نفسه أن ذلك اعتقاده واعتقاد آبائه الا ان عمله عمل من يعتقد أن لاحياة بعد هذه الحياة لسريان عقائد النيشريين الى قلبه وهو في غفلة عن نفسه فلهذا تغلب عليهم الأثرة وهو افراط الشخص في حبه لنفسه الى حد لو عرض في طريق منفعته مضرة كل العالم لطلب تلك المنفعة وان حاق الضرر بمن سواه . ومن لوزم هذه الصفة ان صاحبها يؤثر منفعته الخاصة على المنافع العامة ويبيع جنسه وأمته بابخس الاثمان بل لايزال به الحرص على هذه الحياة الدنيئة يبعث فيه الخوف ويمكن فيه الجبن حتى يسقط به في هاوية الذل ويكتفي من الحياة بمدها وان كانت مكتنفة بالذلة محاطة بالمسكنة مبطنة بالعبودية فاذا وصلت الحال في أمة الى أن تكون آحادها على هذه الصفات تقطعت فيها روابط الالتئام وانعدمت وحدتها الجنسية وفقدت قوتها الحافظة وهوت عروش مجدها وهجرت الوجود كما هجرها

﴿ بيان الامم التي خنعت للذل وضرعت للضيم بعد العزة والشرف ﴾
بما افسد فيهم النيشريون (الدهريون)

شعب ﴿ الكريك ﴾ اي اليونانيون كانو قوماً قليلي العدد وبما الهموا او ورثوا من العقائد الثلاث خصوصاً عقيدة ان امتهم اشرف الامم وبما اودعوا من الصفات الثلاث خصوصا صفة الانفة والاباء وهي عين

الحياء ثبتوا احقابا في مقاومة الامة الفارسية وهي تلك الامة العظيمة التي كانت تمتد من نواحي كشغر الى ضواحي استنبول ذلك فوق مابلغوه من الدرجات العالية في العلوم الرفيعه وقد حملهم الخوف من الذل والانفة من العبودية على الثبات في مواقف الابطال بل رسخ بهم ذلك ولا رسوخ الجبال حذراً من الوقوع فيما لا يليق بارباب الشرف وابناء المجد حتى آل بهم الامر أن تغلبوا على تلك الدولة العظيمة ﴿ دولة فارس ﴾ وهدموا اركانها ومدوا ايديهم الى الهند . وكانت صفة الامانة قد بلغت من نفوسهم الى حيث كانوا يرجحون الموت على الخيانة . كما تراه في قصة ﴿ تيستوكليس ﴾ وهوقائد يوناني نبذه ابناء جلدته وطردوه وارصدوا له القتل فاضطر للفرار من ايديهم والتجأ الى ﴿ ارتكز يكسيس ﴾ ملك فارس فلما كانت حرب بين فارس واليونان أمره ارتكزيكسيس ان يتولى قيادة جيش لحرب اليونان فأبى أن يحارب أمته وان كانت طردته فلما الح عليه الملك الفارسي ولم يجد محيصا تناول السم ومات أنفة من خيانة بلاده . راجع تاريخ اليونان .

ظهر ابيقور الدهري واتباعه الدهريون في بلاد اليونان متسيمين بسيما الحكماء وانكروا الالوهية ﴿ وانكارها اشد المنكر ومنبع كل وبال وشر كما يأتي بيانه ﴾ ثم قالوا ما بال الانسان معجب بنفسه مغرور بشأنه يظن ان الكون العظيم انما خلق خدمة لوجوده الناقص ويزعم انه اشرف المخلوقات وانه العلة الغائية لجميع المكونات . ما بال هذا الانسان قاده الحرص بل الجنون والخرق الى اعتقاد ان له عوالم نورانية ومعاهد قدسية

وحياة أبدية ينقل اليها بعد الرحلة من هـذه الدنيـا ويتمتع فيها بسعادة لا يشوبها شقاء ولذة لا يخالطها كدر . ولهذا قيد نفسه بسلاسل كثيرة من التكاليف مخالفاً نظام الطبيعة العادل . وسد في وجه رغبته أبواب اللذائذ الطبيعية وحرم حسه كثيراً من الحظوظ الفطرية مع انه لا يمتاز عن سائر الحيوانات بمزية من المزايا في شأن من الشؤن بل هو أدنى وأسفل من جميعها في جبلته وأنقص من كلها في فطرته وما يفتخر به من الصنائع فانما أخذه بالتقليد عن سائر الحيوانات فالنسج مثلا نقله عن العنكبوت والبناء استن فيه بسنة النحل ورفع القصور وانشاء الصوامع أخذ فيه مأخذ النمل الابيض وادخار الاقوات حذا فيه حذو جنس النمل وتعلم الموسيقى من البلبل وعلى ذلك بقية الصنائع . فان كان هذا شأنه من النقص فليس من اللائق به ان يقذف بنفسه في ورطات المتاعب والمشاق عبثاً ومن الجهل أن يغتر بهذه الحياة التى لا تمتاز عن حياة سائر الحيوانات بل ولا جميع النباتات وليس وراءها حياة أخرى في عالم آخر بل أجدر به أن يلقي ثقل التكاليف عن عاتقه ويقضي حق الطبيعة البدنية من حظ اللذة ومتى سنح له عارض رغبة حيوانية وجب عليه تناوله من أيّ وجوهه وعليه أن لا ينقاد الى ما تخيله له أوهام الحلال والحرام واللائق وغير اللائق « لبئس ماسولت لهم أنفسهم نعوذ بالله » فتلك أمور وضعية « في زعمهم » تقيد بها الناس جهلا فلا ينبغي لابن الطبيعة أن يجعل لها من نفسه محلا ولما امتنعت عليهم نفوس أهل الحياء من الأمة فلم تأخذ منها وساوسهم وجدوا تلك الصفة الكريمة سداً دون

طلبتهم فانصبوا عليها يقصدون محوها من الانفس وأعلنوا أن الحياء ضعف في النفس على ما تقدم وزعموا أن من الواجب على طالب الكمال أن يكسر مقاطر العادات (جمع مقطرة وهي خشبة فيها خروق بقدر أرجل المحبوسين) ويحمل نفسه على ارتكاب ما يستنكره الناس حتي يعود من السهل عليه أن يأتي كل قبيح بدون انفعال نفسى ولا يجد أدني خجل في المجاهرة بأية هجينة كانت

ثم تقدم الابيقوريون الى العمل بما يرشدون اليه فهتكوا حجاب الحياء ومزقوا ستاره وأراقوا ماء الوجه الانساني المكرم فاستحلوا التناول من مال الناس بغير اذن وكانوا متى رأوا مائدة اقتحموا عليها سواء طلبوا اليها أم لم يطلبوا حتي سماهم القوم بالكلاب فاذا راوهم رموهم بالعظام المعروقة ومع ذلك لم تتنازل هذه الكلاب الانسية عن دعوى الحكمة ولم يردعها رادع الزجر عن شيء من شرورها وكانت تنبح في الاسواق منادية المال مشاع بين الكل وتهجم على الناس من كل ناحية وهذا سبب شهرتهم بالكلبيين

فلما ضربت أفكار النيشريين « الدهريين » في نفوس اليونان بسعي الابيقوريين ونشبت بعقولهم سقطت مداركهم الى حضيض البلادة وكسد سوق العلم والحكمة وتبدل شرف أنفسهم بالذل واللؤم وتحولت أمانتهم الى الخيانة وانقلب الوقار والحياء خفة وتسفلا واستحالت شجاعتهم الى الجبن ومحبة جنسهم ووطنهم الى المحبة الشخصية وبالجملة فقد تهدمت عليهم الاركان الستة التي كان يقوم عليها بيت سعادتهم وانتقض أساس انسانيتهم ثم انتهى أمرهم بوقوعهم أسرى في أيدي الرومانيين « جنس

اللاتين ﴾ وكبلوا في قيود العبودية زمنا طويلا بعد ما كانوا يعدون حكاما في الارض بلا معارض

﴿ الامة الفارسية ﴾ بلغت فيها الاصول الستة أعلى مكانة من الكمال احقابا طويلة فكانت لها أصول السعادة وموارد النعيم حتي بلغ اعتقاد الفارسيين من الشرف لانفسهم الى حد أنهم كانوا يزعمون ان السعداء من غيرهم انما هم الداخلون فى عهدهم المستظلون بحمايتهم أو المجاورون لممالكهم

كان الصدق والامانة أول التعليم الدينى عندهم ووصلوا فى التحرج من الكذب الى حيث كانوا اذا بلغت الحاجة مبلغها من أحدهم لا يتقدم للاقتراض خوف أن يضطره الدين الى الكذب فى مواعيد وفائه فارتقوا بهذه الخصال الى درجة من العزة وبسطة الملك يلزم لبيانها كتاب مثل الشاهنامه

قال المؤرخ الفرنساوي فرنسيس لونورمان ان مملكة فارس على عهد دارا الاكبر كانت إحدى وعشرين ايالة . واحدة منها تحتوي مصر وسواحل القلزم ﴿ البحر الاحمر ﴾ وبلوجستان والسند . وكانوا اذا ألم الضعف بسلطانهم في زمن من الازمان بعثتهم تلك العقائد القويمة والصفات الكريمة على تلافي أمرهم فخلصوا مما ألم بهم في قليل زمن ورجعوا الى مكانتهم الاولى ومجدهم الأعلى

ظهر فيهم ﴿ مزدك ﴾ النيشري ﴿ الدهري ﴾ على عهد ﴿ قباد ﴾ وانتحل لنفسه لقب رافع الجور ودافع الظلم وبنزغة من نزغاته قلع أصول السعادة من أرض الفارسيين ونسفها فى الهواء وبددها فى الاجواء . فانه

بدأ تعليمه بقوله . جميع القوانين والحدود والآداب التي وضعت بين الناس قاضية بالجور مقررة للظلم وكلها مبنى على الباطل وان الشريعة النيشرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن وقد بقيت مصونة في حرزها عند الحيوانات والبهائم . أيّ عقل وأيّ فهم يصل الى سر ما شرعته النيشر «الطبيعة» وأيّ ادراك يحيط بمثل ما أحاط به وقد جعلت الطبيعة حق المأكل والمشرب والبضاع مشاعا بين الآكلين والشاربين والمبضاعين بدون أدنى تخصيص . فما الحامل للانسان على حرمان نفسه من بضاع بنته وأمه وأخته ثم تركهن لغيره يتمتع بهن انقياداً لما يخيله له الوهم مما يسميه شريعة وأدباً . وأي حق يستند اليه من يدعي ملكية خاصة في مال يتصرف فيه دون سواه مع انه شائع بينه وبين غيره . وأي وجه لمن يحجر على امرأة دخلت في عقده ويحظر على الناس نيلها وقد خلق الذكر للانثى والانثى للذكر وماذا يوجد من العدل في قانون يحكم بان المال الشائع اذا تناولته يد مغتصب بما يسمونه بيعاً وشراءً أو ارثاً يكون مختصاً بذلك المغتصب ثم يحكم على الفقير المحروم اذا احتال لأخذ شيءٍ من حقه والتمتع به بانه خائن أو غاصب

فان كان هذا شأن تلك القوانين الجائرة فعلى الانسان ان يفك اغلالها من عنقه ويطرح كل قيد عقدته القوانين والشرائع والآداب التي لا واضع لها سوى العقل الانساني الناقص وليرجع الى سنة الطبيعة المقدسة ويقضي حق شهوته من اللذائذ التي أباحتها له بأي الوجوه ومن أية الطرق ويأخذ في ذلك مأخذ البهائم وعليه ان يقاوم الغاصبين المتحكمين في الحقوق

قسرا ﴿أي المالكين للأموال والأبضاع﴾ فيخرجهم عن سوء فعالهم من الغصب والجور ﴿أي حق التملك﴾

فلما ذاعت هذه النزغات الخبيثة بين الامة الفارسية تهتك الحياء وفشا الغدر والخيانة وغلبت الدناءة والنذالة واستولى حكم الصفات البهيمية على نفوسهم وفسدت أخلاقهم ورذلت طباعهم

ثم ان أنو شروان قتل مزدك وجماعة من شيعته ولكنه لم يستطع محو هذه الاوهام الفاسدة بعد ماعلقت بالعقول والتبست نفاثها بالافكار فكان علة فى ضعفهم حتي اذا هاجمهم العرب لم تكن الا حملة واحدة فانهزموا مع ان الروم وهم أقران الفارسيين ثبتوا في مجالدة العرب ومقاتلتهم أزماناً طويلة

﴿الامة الاسلامية﴾ جاءتها الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة ومكنت فى نفوسها تلك الصفات الفاضلة وشمل ذلك آحادهم ورسخت بينهم تلك الأصول الستة بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤس الامم من جبال الالب الى جدار الصين فى قرن واحد وحثوا تراب المذلة على رؤس الاكاسرة والقياصرة مع انهم لم يكونوا الا شرذمة قليلة العدد نزرة العدد ولم ينالوا هذه البسطة فى الملك والسطوة فى السلطان الا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة . هذا الى ماجذبه مغناطيس فضائلهم من مائة مليون دخلوا فى دينهم فى مدة قرن واحد من أمم مختلفة مع انهم كانوا يخيرونهم بين الاسلام وشئ زهيد من

الجزية لا يثقل على النفوس أداؤه هكذا كان حال هذه الامة الشريفة من العزة ومنعة السلطان

فلما كان القرن الرابع بعد الهجرة ظهر النيشريون (الطبيعيون) بمصر تحت اسم الباطنية وخزنة الاسرار الالهية وانبثت دعاتهم فى سائر البلاد الاسلامية خصوصاً بلاد ايران . علم هؤلاء الدهريون ان نور الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم قد أنار قلوب المسلمين كافة وان علماء الدين الحنيفي قائمون على حراسة عقائد المسلمين وأخلاقهم بكمال علم وسعة فضل ودقة نظر فلهذا ذهب أولئك المفسدون مذاهب التدليس في نشر آرائهم وبنوا تعليمهم على أمور أولاً اثارة الشك في القلوب حتى يتفكك عقد الايمان وثانياً الاقبال على الشاك وهو فى حيرته ليمنوه بالنجاة منها وهدايته الى اليقين الثابت فاذا انقاد لهم أخذوا منه مواثيقهم ثم أوصلوه الى مرشدهم الكامل وثالثاً أوعزوا الى دعاتهم أن يلبسوا لرؤساء الدين الاسلامى لباس الخدعة وجعلوا من شروط الداعى أن يكون بارعا فى التشكيك ماهراً فى التلبيس مقتدراً على إشراب القلوب مطالبه . فاذا سقط الساقط من المغرورين فى حبالة مرشدهم الكامل فأول مايلقنه المرشد قوله . ان الاعمال الشرعية الظاهرة (كالصلاة والصيام ونحوهما) انما فرضت على المحجوبين دون الوصول الى الحق والحق هو المرشد الكامل فحيث انك وصلت الى الحق فاليك أن تلقي عن عاتقك ثقل الاعمال البدنية فاذا مضى عليه زمن فى عهدهم صرحوا له بأن جميع الاعمال الباطنة والظاهرة وكذلك سائر الحدود والاعتقادات انما ألزمت

فرائضها بالناقصين المصابين بأمراض من ضعف النفوس ونقص العقول أما وقد صرت كاملاً فلك الاختيار فى مجاوزة كل حد مضروب والخروج من اكنان التكاليف الى باحات الاباحة الواسعة . ما الحلال وما الحرام . ما الامانة وما الخيانة . ما الصدق وما الكذب . ماهي الفضائل وما هى الرذائل . ألفاظ وضعت لمعان مخيلة ومالها من حقيقة واقعية ﴿فى زعم المرشد﴾

فاذا قرر المرشد أصول الاباحة فى نفوس اتباعه التمس لهم سبيلاً لانكار الالوهية وتقرير مذهب النيشرية ﴿ الدهريين﴾ فأتى اليهم من باب التنزيه فقال الله منزه عن مشابهة المخلوقات ولو كان موجوداً لأشبه الموجودات ولو كان معدوماً لأشبه المعدومات فهو لا موجود ولا معدوم ﴿ يعني انه يقر بالاسم وينكر المسمى ﴾ مع ان شبهته هذه سفسطة بديهية البطلان فان الله منزه عن مشاركة الممكنات فى خصائص الامكان أما فى مطلق الوجود فلا مانع من أن يتفق اطلاق الوصف عليها وعليه وان كان وجوده واجباً ووجودها ممكناً

وقد جدّت طائفة الباطنية فى افساد عقائد المسلمين زمانا غير قصير أخذاً بالحيلة ونفاذا بالخدعة حتى انكشف أمرهم لعلماء الدين ورؤساء المسلمين فانتصبوا لدرء مفاسدهم وتحويل الناس عن ضلالاتهم فلما رأوا كثرة معارضيهم شحذوا شفار الغيلة فقتكوا بكثير من الصالحين وأراقوا دماء جم غفير من علماء الأمة الاسلامية وأمراء الملة الحنيفية

وبعض أولئك المفسدين عند ما أمكنته الفرصة ووجد من نفسه ريح القوة أظهر مقاصده على منبر ﴿ الموت ﴾ ﴿قلعة فى خراسان ﴾

وجهر بآرائه الخبيثة فقال . اذا قامت القيامة حطت التكاليف عن الاعناق ورفعت الاحكام الشرعية سواء كانت متعلقة بالاعمال البدنيـة الظاهرة أو الملكات النفسية الباطنة والقيامـة عبارة عن قيام القائم الحق وأنا القائم الحق فليعمل عامل ما أراد فلا حرج بعد اليوم اذ رفعت التكاليف وخلصت منها الذمم ﴿ أي أغلقت أبواب الانسانية وفتحت أبواب البهيمية ﴾

وبالجلة فهؤلاء الدهريون من أهـل التأويل أي ﴿ الناتور اليسم ﴾ من الاجيال السابقة الاسلامية عملوا على تغيير الاوضاع الآلهيـة بفنون من الحيل ودعوا كل كمال انسانى نقصاً وكل فضـيلة رذيلة وخيـلوا للناس صدق مايزعمون ثم تطاولوا على جانب الالوهية فحلوا عقود الايمان بها بالسفسطة التي سموها تنزيها ومحوا هذا الاعتقاد الشريف من لوح القلوب وفى محوه محو سعادة الانسان فى حياته وسقوطه في هاوية اليأس والشقاء

فأفسـدوا أخـلاق الملة الاسلاميـة شرقاً وغرباً وزعزعوا أركان عقائدها وساعدهم مدُّ الزمان على تلويث النفوس بالاخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة التي كان عليها أبناء هـذه الملة الشريفـة حتى تبـدلت شجاعتهم بالجبن وصلابتهم بالخور وجرأتهم بالخوف وصدقهـم بالـكذب وأمانتهم بالخيانة ووقع المسخ فى هممهم فبعـد ان كان مرماها مصالح الملة عامة صارت قاصرة على المنافع الشخصية الخاصة وعادت رغباتهم لاتخرج عن الشهوات البهيمية . وكان من عاقبة ذلك ان جماعـة من قزم الافرنج صدعوا أطراف البـلاد السورية وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليهـا الابرياء وخربوا ما أمكنهم أن يخربوا وثبتوا بها نحو مائتي سنة والمسلمون

فى عجز عن مدافعتهم . مع ان الافرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين وطروا الفساد على أخلاقهم فى قلق لا يستقر لهم أمن على حياتهم وهم فى بلادهم خوفاً من عادية المسلمين وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيزخان واخترقوا بلاد المسلمين وهدموا كثيرا من المدن المحمدية واهدروا دماء ملايين من الناس ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم مع ان مجال خيولهم فى بدء الاسلام على قلة عددهم كان ينتهى الى أسوار الصين

وما نزل بالمسلمين شيء من هذه المذلات والاهانات ولا رزئوا بالتخريب فى بلادهم والفناء في أرواحهم الا بعد ما كلت بصائرهم ونغلت نياتهم ومازج الدغل قلوبهم وخربت اماناتهم وفشا الغش والادهان بينهم ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف امة ولا ينظر الي ملة فاصبحوا بقناة خوّارة بعد ان كانت قناتهم لا تلين لغامز الا ان بقية من تلك الاخلاق المحمدية كانت لم تزل راسخة فى نفوس كثير منهم كامنة فى طي ضمائرهم فهى التى انهضتهم من كبوتهم وحملتهم على الجد فى كشف السطوة الغريبة عن بلادهم فأجلوا الامم الافرنجية بعد مئين من السنين وخلصوا البلاد السورية من ايديهم وطوقوا الجنكيزيين بطوق الاسلام والبسوهم تيجان شرفهم ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف واعادة ما كان لهم من الشوكة الى المقام الاول فان ما كان من شوكة وقوة انما هو اثر العقائد الحقة والصفات المحمودة فلما خالط الفساد هذه وتلك تمسر عود السهم الى النزعة . ولهذا ذهب المؤرخون الى ان بداية الانحطاط فى سلطة

المسلمين كانت من حروب الصليب والاليق ان يقال ان ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية ﴿ الدهرية ﴾ فى صورة الدين وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس اهل الدين الاسلامى .

وليس بخاف ان فئة ظهرت فى الايام الاخيرة ببعض البلاد الشرقية وأراقت دماء غزيرة وفتكت بأرواح عزيزة تحت اسم لايبعد عن أسماء من تقدمها لمثل مشربها وانما التقطت شيئاً من نفايات ماترك دهريو الموت وطبيعيو كردكوه . وتعليمها نموذج تعليم أولئك الباطنيين فعلينا ان ننتظر مايكون من آثار بدعها فى الامة التى ظهرت بها

﴿الشعب الفرنساوى﴾ شعب كان قد تفرد بين الشعوب الاروبية باحراز النصيب الاوفر من الاصول الستة فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة فى قطعة أوربا بعد الرومانيين وصار بذلك مشرقاً للتمدن فى سائر الممالك الغربية وبما أحرز الفرنساويون من تلك الاصول كانت لهم الكلمة النافذة فى دول الغرب الى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحى حتى ظهر فيهم (وولتير) و (روسو) يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بانارة الافكار وهداية العقول فنبشا قبر أبيقور الكلبى واحييا مابلى من عظام الناتور اليسم ﴿ الدهريين ﴾ ونبذا كل تكليف دينى وغرسا بزور الاباحة والاشتراك وزعما ان الآداب الالهية جعليات خرافية كما زعما ان الاديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانسانى وجهر كلاهما بانكار الالوهية ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء ﴿ برأهم الله مما قالا ﴾ وكثيرا ماألف وولتير من الكتب فى تخطئة الانبياء والسخرية بهم والقدح فى

انسابهم وعيب ماجاؤا به فأخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم فنبذوا الديانة الميسوية ونفضوا منها أيديهم وبعد ان أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة ﴿فى زعمهم﴾ شريعة الطبيعة وزاد بهم الهوس فى بعض أيامهم حتى حمل لفيفاً من عامتهم ان يتناولوا بنتاً من ذوات الجمال فيهم ويحملوها الى محراب الكنيسة ففعلوا ونادى زعيم القوم . أيها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ولا التماع البرق ولا تظنوا شيئا من ذلك تهديداً لكم من الله السماء يرسله عليكم ليعظكم به ويزعجكم عن مخالفته كلاً فهذه كلها آثار الطبيعة ﴿الناتور﴾ ولا مؤثر فى الوجود سوى ﴿الناتور﴾ خلوا عن أعناقكم قيود الاوهام ولا تقيموا لانفسكم إلها من خواطر ظنونكم فان كانت العبادة من رغائب شهواتكم فهاهى (مدموازيل) أى العذراء قائمة فى المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها ان شئتم

والاضاليل التى بثها هذان الدهريان ﴿وولتير وروسو﴾ هى التي أضرمت نار الثورة الفرنساوية المشهورة ثم فرقت بعد ذلك أهواء الامة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها فاختلفت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا فى سبل الخلاف زمنا يتبعه زمن حتى تباين صدعهم وذهب كل فريق يطلب غاية لايري وراءها غاية وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة وانحصر سعى كل قبيل فى التماس مايوافى لذته ويوافق شهوته واعرضوا عن منافعهم العامة وأعقب ذلك عروض الخلل لسياستهم الخارجية شرقا وغربا

ثم ان نابليون الاول بذل جهده فى اعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب استعدرا كاً لشأنه لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل فاستمر الاختلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم . هذا الذى جرّ الفرنساويين للسقوط فى عار الهزيمة بين يدى الجرمانيين وجلب اليهم من الخسار ماتعسر عليهم تعويضه فى سنين طويلة . هذه الاباطيل الدهرية قام عليها مذهب الكمون أى الاشتراكيين ونما هذا المذهب بين الفرنساويين ولم تكن مضار الآخذين به ومفاسدهم فى البلاد الفرنساوية أقل من مضار الجرمانيين (راجع تاريخ الحرب بين فرنسا والمانيا) ولولم يتدارك الامر أرباب العقائد النافعة والسجايا الحسنة لنسف الاشتراكيون كل عمران على اديم فرنسا ومحوا مجد الامة تنفيذا لاهوائهم وجلبا لرغائبهم

(الامة العثمانية) انما رقّت حالتها فى الازمنة المتأخرة بما دبَّ فى نفوس بعض عظمائها وأمرائها من وساوس الدهريين فان القواد الذين اجترحوا اثم الخيانة فى الحرب الاخيرة بينها وبين الروسية كانوا يذهبون مذهب النيشريين (الدهريين) وبذلك كانوا يعدون أنفسهم من أرباب الافكار الجديدة (أبناء العصر الجديد)

زعموا بما كسبوا من أوهام الدهريين ان الانسان حيوان كالحيوانات لايختلف عنها فى أحكامها وهذه الاخلاق والسجايا التي عدوها فضائل تخالف بجميعها سنن الطبيعة المطلقة (الناتور) وانما وضعها تحكم العقل وزادها تطرف الفكر . فعلى من بصر بالحقيقية (على زعم أولئك المارقين) أن يستنتج كل طريق لتحصيل شهواته واستيفاء لذاته ولا يأخذ نفسه بالحرمان

من ملاذه وقوفاً عند خرافات القيود الواهنة والموضوعات الانسانية الواهية . وحيث ان الفناء حتم على الاحياء فما هو الشرف والحياء وماهي الامانة والصدق وأى شيء هو العفة والاستقامة . ولهذا خان أولئك الامراء ملتهم مع ما كان لهم من الرتب الجليلة ورضوا بالدنية واستناموا الى الخسة ونسفوا بيت الشرف العثماني فى تلك الحرب وجلبوا المذلة على شعوبهم بعرض من الحطام قليل

السوسياليست ﴿الاجتماعيون﴾ النهيليست ﴿العدميون﴾
الكمونيست ﴿الاشتراكيون﴾

هذه الطوائف الثلاثة تتفق في سلوك هذه الطريقة ﴿الدهرية﴾ وزينوا ظواهرهم بدعوى انهم سند الضعفاء والطالبون بحقوق المساكين والفقراء وكل طائفة منها وان لونت وجه مقصدها بما يوهم مخالفته لمقصد الاخرى الا ان غاية مايطلبون انما هو رفع الامتيازات الانسانية كافة واباحة الكل للكل وإشراك الكل في الكل . وكم سفكوا من دماء وكم هدموا من بناء وكم خربوا من عمران وكم أثاروا من فتن وكم انهروا من فساد كل ذلك سعياً فى الوصول الى هذه المطالب الخبيثة . وجميعهم على اتفاق فى ان جميع المشتهيات الموجودة على سطح الارض منحة من الطبيعة وفيض من فيوضها والاحياء فى التمتع بها سواء واختصاص فرد من الانسان بشيء منها دون سائر الافراد بدعة فى شرع الطبيعة سيئة يجب محوها والاراحة منها . ومن مزاعيمهم ان الدين والملك عقبتان عظيمتان وسدان منيعان يمترضان بين أبناء الطبيعة ونشر شريعتها المقدسة ﴿الاباحة والاشتراك﴾ وليس من

مانع أشد منهما فاذن من الواجب على طلاب الحق الطبيعي ان ينقضوا هذين الاساسين ويبيدوا الملوك ورؤساء الاديان

ثم يعمدوا الى الملاك واهل السعة في الرزق فان دانوا لشرع الطبيعة فخرجوا عن الاختصاص فتلك والاّ أخذ باعناقهم قتلا وبأكظامهم خنقا حتى يعتبر بهم من يكون من أمثالهم فلا يلوون رؤسهم كبرا على الشريعة المقدسة ﴿شريعة الطبيعة﴾ ولا تزورّ أعناقهم عصياناً لاحكامها

نظر أبناء هـذه الطوائف الثلاثة فى وجوه الوسائل لبث أفكارهم والافضاء بما فى أوهامهم الى قلوب العامة فلم يجدوا وسيلة أنجح فى زرع بزور الفساد فى النفوس من وسيلة التعليم إما بانشاء المدارس تحت ستار نشر المعارف أو بالدخول في سلك المعلمين فى مدارس غيرهم ليقرروا أصولهم فى اذهان الاطفال وهم فى طور السذاجة فتنتقش بها مداركهم بالتدريج . فمن أولئك الدهريين من همه بناء المدارس ودعوة الناس اليها ومنهم متفرقون فى بلاد أوربا يطلبون وظائف التعليم وينالون من ذلك طلبتهم وجميعهم يتعاونون على اذاعة خيالاتهم الباطلة وبهذا كثرت أحزابهم ونمت شيعتهم فى أقطار الممالك الاروبية خصوصاً مملكة الروسية . لاجرم ان هذه الطوائف اذا استفحل أمرها وقوى ساعدها على المجاهرة باعمالها فقد تكون سبباً فى انقراض النوع البشرى كما تقدم ذكره أعاذنا الله من شرور أقوالهم وأعمالهم

﴿ مورمون ﴾

هذا النبي الاخير والرسول الممتاز بالبعثة من قبل الناموس (الطبيعة)

نشأ فى انكلترا ثم هاجر منها الى اميركا واعلن ماالقى اليه بالهام الطبيعة من ان النعمة العظمى ﴿ يريد الاباحة والاشتراك ﴾ انما يوتاها من كان مؤمنا بالطبيعة وليس لغيره من الكفرة بها حق التمتع بتلك النعمة واجتمع اليه عدد من ضعفة العقول فألف منهم جمعيتين احداهما من المؤمنين والاخرى من المؤمنات وقال لكل مؤمن حق التمتع بكل مؤمنة حتى كانت اذا سئلت احدى المؤمنات.زوجة من أنتِ . تجيب انها زوجة جماعة المؤمنين واذا سئل أحد أبنائهن.ابن من أنتَ . يجيب انه ابن الجمعية الأ انه الى الآن لم يصعد لهيب فسادهم من هوة الويل(هوة جمعيتهم)

﴿ دهريو الشرقيين ﴾

اما منكرو الالوهية أعني النيشريين الذين ظهروا فى لباس المهذبين ولوّنوا ظواهرهم بصبغ المحبة الوطنية وزعموا انفسهم طلاب خير الامة فصاروا بذلك شركاء اللص ورفقاء القافلة ثم تجلوا في اعين الاغبياء حملة لاعلام العلم والمعرفة وبسطوا للخيانة بساطاً جديدا وتولاهم الغرور بماحفظوا من كلمات قليلة ناقصة غير تامة الافادة مسروقة من اوهام المبطلين وفتلوا سبالهم كبرا وعلوًّا ولقبوا انفسهم بالهادين والادلاء وهم في اطباق جهل وارتاق غباوة وفي أهب من دنس الرذائل ومسوك من قذر الدنائم فاولئك قوم قوى فيهم الظن بان العقل وثمرته من المعرفة ينحصران فى تبين وجوه الغدر وتعرف طرق الاختلاس . وانى لفى خجل من ذكرهم يدافعنى الحياء عن رواية سيرهم وحكاية اعمالهم فان مقاصدهم من الدناءة بحيث لا تخرج عن جوبهم . يسعون فى اقتلاع اساس امتهم لشهوة بطونهم .

يحددون شفارهم لتقطيع روابط الالتئام بين بنى جنسهم لا يبتغون بذلك عوضاً سوى حشو معدهم وما أضيق مجال أفكارهم . الى الآن لم يخط أحدهم خطوة خارج كرشه ولم يعد واحد منهم رجله لأ بعد من فرشه وليس في وسع القلم ان يتحرك فى هذا المجال الضيق غير انه يمكن ان يقال انهم ﴿ يباجوا ﴾ لغيرهم من أهل الضلالة ﴿ أى سيئو التقليد لهم ﴾ وما بقى من أوصافهم لا يخفى على فهم القارئين

﴿ مضار انكار الالوهية ﴾

تبين مما أسلفناه ان طائفة النيشريين ﴿ الدهريين ﴾ كلما نجمت فى أمة أفسدت اخلاقها واوقعت الخلل في عقولها وتخطفت قلوب آحادها بأنواع من الحيل وألوان من التلبيس حتي تصبح تلك الامة وقد وهى اساسها وتفطر بناؤها واغتالتها رذائل الاخلاق من الاثرة وعبادة الشهوات والجرأة على ارتكاب الخيانات ولا يزال الفساد يتغلغل في احشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود أو تضرب عليها الذلة ويخلد أبناؤها في الفقر والعبودية

الا ان قبيلا من هذه الطائفة عملوا على اخفاء مقصدهم الاصلي وهو الاباحة والاشتراك واكتفوا في ظاهر الامر بانكار الالوهية وجحود يوم الدين يوم العرض والجزاء وقد يظن بعض ضعفة العقول ان في ذلك بسطة الفكر وسعة الحرية لهذا أحببت ان أبين ان هذه النزعة وحدها كافية في افساد الهيئة الاجتماعية وتزعزع أركان المدنية وليس من ضروب الباطل ما هو أشد منها تأثيراً في محو الفضائل واثارة الخبائث والرذائل وليس من

الممكن ان يجتمع لشخص واحد وهم الدهري وفضيلة الامانة والصدق وشرف الهمة وكمال الرجولية

ذلك ان كل فرد من نوع الانسان قد أودع بحسب فطرته وبناء بنيته شهوات تميل به الى مشتهيات فشهواته تدفعه الى تحصيل مشتهياته ولا يستطيع تسكين هواه ولا كسر سورة نفسه الا بنيل مايمكنه من تلك المشتهيات كأنه يعالج ألم الطلب بما يصل اليه من المطلوب ولم تحدد الطبيعة طريقاً معينة يسلكها الراغبون للوصول الى رغائبهم فسبيل حق. وسبيل باطل. وسبيل الفتنة والفساد. وسبيل الهدى والرشاد. وسبيل سفك الدماء واغتصاب الحقوق . وسبيل الاجمال والتعفف . وكلها ميسر للطالب غير ممتنع على السالك

فقصر النفوس على طريقة محدودة وتوقيف هواها عند حدود معينة ومنعها من تجاوز حد الاعتدال في آثارها واعمالها وارضاء كل ذي شهوة بحقه وكفه عن الاعتداء والاجحاف بحقوق غيره هذا كله انما يكون باحد امور اربعة

﴿ الامور التي يمكن بها الزام النفس حدود العدل ﴾

اما ان يحمل كل ذي حق آلة حربه فيخترط سيفه ويعتقل رمحه ويرفع ترسه ويقوم ليله ونهاره يقدم احدى رجليه ويؤخر الاخرى دفاعاً عن حقه . واما شرف النفس كما يزعمه ارباب الاهواء . واما الحكومة . واما الاعتقاد بأن لهذا العالم صانعاً قادراً محيط العلم نافذ الحكم وانه يوفي كل عامل جزاء عمله من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة

شراً يره ثواباً جزيلا اوعقاباً وبيلا فى حياة بعد هذه الحياة

﴿ الاول المدافعة الشخصية ﴾

اما الاول فبراز وضراب ونضال وقتال وجلاد تسيل به الاودية مهجاً وتخضل به الربي دما وتتفاني به النفوس طلباً للحقوق أودفاعا عنها وتكون الدائرة للاقوياء على الضعفاء حتى اذا قوى الضعفاء يوما ماثاروا على الاقوياء فلا يزال صاحب القوة يطحن الضعيف والاقران يسحق بعضهم بعضا الى ان يعم جميعهم الفناء وينقرض النوع الانساني من وجه البسيطة

﴿ الثاني شرف النفس ﴾

اما الثاني فنقدم الكلام فيه ببيان شرف النفس فهى صفة تنكب بصاحبها عن اتيان مايذم عند قبيلته وغشيان مايقبح في انظار عشيرته ويقابلها خسة النفس وهي صفة لا يتأثرمعها صاحبها من التشنيع ولا تنفعل نفسه من التقبيح . فتلك الصفة أعني شرف النفس ليست لها حقيقة معينة ولا هى في حدود معروفة عند جميع الامم حتى يمكنهم بالمحافظة عليها ان يقفوا بالشهوات عند حد الاعتدال. ألا ترى ان كثيراً من الامور يعد ارتكابه عند بعض الامم خسة ودناءة وهو بعينه عند بعض آخر شرف ورفعة يستتبع المدح والثناء على انه فى الحقيقة شر الشرور وأعظم الفجور تتبين ذلك من حال سكان البادية وأهل الجبال من القبائل المتبدية. فانهم يعدون الغارة والفتك بالارواح وانتهاب الاموال واسترقاق الاحرار من فعال المجد وبلوغ الغاية منها بلوغ الى نهاية الشرف وهذه الفعال بعينها يعدها سكان المدن وأهل الحضارة من لواحق الدناءة وعلائم خسة النفس وكذلك الحيلة والمكر يحسبهما قوم خسة

وخبثا ويحسبها آخرون حكمة وعقلا

واذا أمعنت النظر في المسألة وجدت ان لكل كائن في عالم الامكان علة غائية والعلة الغائية لاعمال الانسان انما هي نفسه فهو لا يطلب شرف النفس ولا يسعى للتجمل به الا لطمعه في توفير رزقه وتوسيع سبل معيشته وخوفه من ضيق مسالك العيش عليه فانه يعلم ان شرف النفس يرد الى صاحبه شوارد القلوب ويجعله مكان ثقتها ويظهره في بهاء الصدق والامانة فيعظم الركون اليه وتكثر أعوانه وفي ذلك توفر أسباب المعيشة واتساع طرقها بخلاف من تلتاث نفسه بالخسة فذلك مقذوف القلوب منبوذ الطباع لا ينبسط اليه النظر ولا يحوم عليه الخاطر فهو قليل الاعوان عديم الاخوان ومن كان هذا حاله سدت عليه أبواب الرزق واكتنفته غائلات الفاقة فيكون ميل الانسان الى شرف النفس ودرجته من القوة والضعف وتمكنه من نفسه وعدم تمكنه ومراتب أثره في كبح الشهوات وردها عند تخوم العدالة انما هو على حسب أحوال الطبقات في معائشهم بمعنى ان كل طبقة من الناس تطلب من تلك الصفة ماينفعها في معيشتها ويحفظها من طارقة السوء بل لاترى كل طبقة ان شيئا يعد من الشرف الا تلك الصفة التي تحفظ بها المنزلة وتصان بها مواد المعيشة. وما زاد على ذلك فلا يعد فقدانه نقصاً ولا الخلو عنه انحطاطا فلا تسعى لاستحصاله وان عده قوم آخرون من جوهر الشرف ومن مقومات الكمال وان لنا عبرة في أغلب السلاطين والامراء فانهم مع أخذهم بمذاهب الشرف لا يبالون بنقض العهود وخفر الذمم خصوصا مع من دونهم في السلطان ومن

لا يضارعهم في القوة ولا يأنفون الظلم ولا ينكرون الغدر ولا يتجافون مذمة من تلك المذام ولا يعدون شيئا منها خسة ولا يحسبونه من غاشيات الدناءة مع ان واحداً من هذه الفعال لو صدر من آحاد الرعية بعضهم مع بعض لعدّ من دنيات الفعال ورمي فاعله بخسة النفس وسقوطها عن مراتب الشرف ومن هذا الوجه كان الخلل يعرض لنظام المعيشة حيث ان سائر الطبقات لا ينظرون الى مايصدر عن أمرائهم ورؤسائهم نظرهم الى مايصدر عن آحادهم فهم يذهبون مذهب التأويل في اعمال الرؤساء والكبراء . وهكذا حال الطبقات العالية بالنسبة لما دونها طبقة بعد طبقة أى ان كل طبقة عالية تزعم نفسها مصونة من المثالب محفوظة من الشنائع ومنزلتها ممن دونها تحمل الادنين على الاقرار لها بما تزعم فلو كان قوام النظام في العالم الانسانى بشرف النفس لانطلقت أيدى العدوان من الطبقات الرفيعة فيما دونها وتفتحت أبواب الشر والفساد في وجه هذا النوع الضعيف

هذا كله اذا فرضنا وقوف كل طالب لشرف النفس عند مايظنه شرفاً لايخالفه الى سواه لا خفية ولا جهرة لكن حيث كان الباعث على التجمل بهذا الوصف انما هو الرغبة في تحسين المعيشة والفرار من مضانكها فقلما يستوى ظاهر الانسان وباطنه في هذه الصفة فهو فى معلنات اموره يسلك سبل الشرف لينال حظه من ميل القلوب اليه ثم لا يمنعه ذلك من غشيان الخيانة الخفية وغمس يديه فى قذر العدوان من وراء حجاب التستر وبسط كفه لتناول الرشوة فى زوايا المحاكم لان طالب خفض العيش يعرف ان هذه الخبائث

الخفية تصل به الى مقصده من السعة على أمن من الاشتهار بصفة الدناءة وذلك معروف من احوال المدّاعين الظاهرين فى ثياب الشرف والعفة والله اعلم ماذا يسترون تحت ذيولهم وما يضمرون دون جيوبهم وما يخزنون من الاموال فى زوايا بيوتهم

فاذن لا يليق بذي عقل ان يجعل شرف النفس ميزاناً للعدل . ولا مكان للظن بان هذه الصفة تقف بكل عند حده وتُرضيه بحقه وتكف النفوس عن غصب الحقوق وتدفعها عن الجور وتمنعها عن الحيف ماظهر منه ومابطن

فان قال قائل إن حب المحمدة مما أشربته قلوب البشر وهو باعث على الاستمساك بشرف النفس لما يستعقبه من حسن الحمد فكل ذى فطرة انسانيـة يسعي لكسب المحمدة لا بد له أن يطلب الغاية من خـلة الشرف النفسى وينزه نفسه عن جميع الرذائل ويرفعها عن معاطاة الدنايا والخسائس ويبتعد بها عن مخالج الحيف والعدوان . فنقول فى جوابه أولا اذا تعارض موجب المدح والثناء ومقتضى الشهوات البدنية فقليل من الناس من يختار الاول على الثانى والجمهور الاغلب مغلوب للشهوة مأسور للذة والنظر فى طبقات الناس وأحوالهم على اختلافهم يثبت لنا ذلك . وثانيا ان صاغة المدائح ونساج المحامد صنف من الناس أشباه إنسان وأسناخ حيوان . أولئك المعروفون بالمؤرخين والشعراء الكاذبين ولا باعث لهؤلاء على نثر المحامد ونظم القصائد الا نضارة الثروة فى الممدوحين ورونق الجاه والجلالة فى المحمودين من غير نظر الى مناشئ الجاه ولا موارد الثروة .

فمناط الحمد احدى البسطتين وان حفت بالمظالم وأحيت باللوائم ولهذا تنبعث نفوس كثير من الناس للوصول الى هذه المظاهر فيطلبون الغنى والثروة والجاه والعظمة ولو كان ذلك من وجوه الغدر وطرق الحيف والظلم لينالوا بذلك حظهم من اللذائذ البدنية كما يصيبون سهمهم من المدائح على ألسنة أولئك المدلسين وليس بكثير في الناس طلاب المحمدة الحقـة اللاّقطون لدرر المـدائح من باحات الفضائل وسـاحات المكارم المرتادون للحمد بين حدود الحق وأولئك الحافظون لشرف النفس وقليل ماهم . فلم تبق ريبة فى قصور هذه الخلة أعني شرف النفس عن الكفاية فى تعديل الاخلاق وتحديد الشهوات وحجب العدوان وحفظ النظام الانساني اللهم الا أن تـكون مستندة الى عقيدة فى دين وتـكون حقيقتها محـدودة في ذلك الدين فعند ذلك تـكون دعامـة لبناء الشركة الانسانيـة ومعقداً لروابط الالفة وسبباً لانتظام سلسلة المعاملات لاستنادها على الدين لا بنفسها مجردة كما مرت الاشارة اليه فى صفة الحياء

﴿ الثالث الحـكومة ﴾

واما الثالث (الحـكومة) فليس بخاف ان قوة الحكومة انما تأتى على كف العدوان الظاهر ورفع الظلم البين اما الاختلاس والزور المموّه والباطل المزين والفساد الملوّن بصبغ من الصلاح ونحو ذلك مما يرتكبه أرباب الشهوات فمن أين للحكومة ان تستطيع دفعه وأنى يكون لها الاطلاع على خفيات الحيل وكامنات الدسائس ومطويات الخيانة ومستورات الغـدر حتى تقوم بدفع ضرره على ان الحاكم وأعوانه قد يكونون بل كثر ما كانوا ويكونون ممن

تملكهم الشهوات فاي وازع يأخذ على أيدى أصحاب السلطة ويمنعهم من مطاوعة شهواتهم المتسلطة على عقولهم وأى غوث ينقذ ضعفاء الرعايا وذوى المكنة منهم من شَرَه أولئك المتسلطين وحرصهم . لا جرم قد يكون الحاكم فى خفىّ أمره رئيس السارقين وفي جلى حاله قائد الناهبين وأعوانه آلات يستعملها فى الجور وأدوات يستعين بها على الفساد والشر فيعطلون من حقوق عباد الله ويهتكون من اعراضهم ويغنمون من أموالهم برؤون ظمأ شهواتهم بدماء الضعفاء وينقشون قصورهم بمهج الفقراء وبالجملة يكون مبلغ سعيهم هلاك العباد ودمار البلاد

﴿ الامر الرابع الاعتقاد بالالوهية ﴾

فاذن لم يبق للشهوة قامع ولا للأهواء رادع الا الأمر الرابع أعنى الايمان بان للعالم صانعاً عالماً بمضمرات القلوب ومطويات الانفس سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بانه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحقه فى حياة بعد هذه الحياة . وفى الحق ان هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان مادة التدليس وهما أفضل وسيلة لا حقاق الحق والتوقيف عند الحد وهما مجلبة الا من ومتنسم الراحة وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئة للاجتماع الانسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة ولا يستقيم نظام المعاملات ولا تصفوا صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش

فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل

وسدت عليها طرق الفضائل ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق وقد تقرر ان العلة الغائية لاعمال الانسان انما هي نفسه كما سبق فان لم يؤمن بثواب وعقاب وحساب وعتاب فى يوم بعد يومه فما الذي يمنعه عن ذمائم الفعال خصوصاً اذا تمكن من اخفاء عمله وأمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفة والمرحمة والمروءة وعلو الهمة وما يشبه ذلك من الاخلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها (ولئن وجد فى أحد الجاحدين شيء من مكارم الاخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصاً لفقد ما يمده من سائر صفات الكمال)

وقد تبين أن أول تعاليم النيشريين « الدهريين » ابطال هذين الاعتقادين « الاعتقاد بالله والاعتقاد بالحياة الابدية » وهما أساس كل دين وآخر تعاليمهم الاباحة والاشتراك . فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الانسانية وتذريته فى ذيول السافيات يطلبون ضعضعة أركان المدنية وفساد الاخلاق البشرية ويقوّضون بذلك مارفعه العلم وشادته المعرفة فيهلكون الأمم باطفاء حرارة الغيرة واخماد ريح الحمية . هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة وأرومات الرذالة والدناءة واحلاس الخسة والنذالة واعلام الكذب والافتراء ودعاة الحيوانية العجماء محبتهم كيد وصحبتهم صيد وتوددهم مكر ومواصلتهم غدر وصداقتهم خيانة ودعواهم للانسانية حبالة ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة . يخونون الامانة ولا يحفظون السر ويبيمون الصق الناس بهم

بأدنى مشتهياتهم . عبيد البطون وأسراء الشهوات لا يستنكفون من الدنية اذا أعقبتها عطية ولا يخجلون من الفضيحة اذا تبعتها رضيخة لا علم عندهم بالوقار ولا احساس لهم بالعار ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر ولا وصل اليهم عن الهمة عبارة معبر أو تفسير مفسر الابن فيهم لا يأمن أباه والبنت لا أمان لها من كليهما . نعم أي حد تقف دونه حركات طبع الطبيعيين

قد يوجد بين الناس من تغره نعومة لمس هذه الافاعى وتروقه رقطة جلودها وانتظام الرقش فيها فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم فيصغى لزخرف قولهم ويظن ان هؤلاء القوم من طلاب التمدن والاعوان على الاصلاح أو من الراغبين في بث المعارف أو المتقين عن الحقائق أو يتخيل ان منهم من يكون غوثاً عند الضيق أو عوناً فى الشدة أو مخزناً للاسرار عند الحاجة فذلك المغرور بمظاهر هذه الطائفة لا محالة يبكي عليه ويضحك منه فالضحك عجباً من غروره والبكاء حزناً على ضلاله

فتبين مما قررناه أن الدين وان انحطت درجته بين الاديان ووهى اساسه فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمسّ بالمدنية ونظام الجمعية الانسانية وأجمل أثراً فى عقد روابط المعاملات بل فى كل شان يفيد المجتمع الانسانى وفى كل ترقٍ بشرى الى أية درجة من درجات السعادة فى هذه الحياة الاولى

ولما كان نظام الاكوان قد بنى على أساس الحكمة ونظام العالم الانساني جزء من النظام الكوني ألهم الله نفوس البشر ان تفزع الى مقاومة أولئك المفسدين «الدهريين» فى أى زمان ظهروا ومدافعة مايعرض من شرهم

﴿كما الهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة والنفرة من الاغذية السامة﴾ وانهض حفاظ النظام المدنى الحقيقي وهو الدين لبذل الجهد وافراغ الوسع في محو آثارهم واستئصال مايغرسون فى تعاليمهم لا جرم ان مزاج الانسان الكبير ﴿يعنى عموم النوع﴾ بما أودع الله فيه من الشعور الفطرى وهو أثر الحكمة الالهية العامة يمج هؤلاء الخونة ولا يحتمل وجودهم في باطنه فيدفعهم كما تدفع الفضلات من المعدة أو الذنانة من المنخر أو النخامة من الصدر لهذا تراهم وان حلوا بعض منازل الارض من زمان بعيد وايدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوى الشوكة لاغراض سافلة الا انهم لم يثبتوا ولم يتم لهم أمر بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف كلما ظهر تقشع والنظام الحقيقى لنوع الانسان وهو الدين لم يزل قارًا راسخا في جميع الاجيال وعلى أى الاحوال

فلم تبق ريبة أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الانسان فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شئ من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه فلاريب أنه يكون سبباً في السعادة التامة والنعيم الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوى ويصعد بهم الى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلى والنفسي مايظفرهم بسعادة الدارين والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . وهذا آخر مادعت اليه الحاجة من المقابلة بين مذهب الدهريين وبين الدين على وجه عام وأثر كل من الامرين في بنية الاجتماع الانسانى والله أعلم

دين الاسلام

اذا نظرنا فيما بين أيدينا من الأديان وجدنا دين الاسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين. ذلك أن عروج الامم على معارج الحق الأعلى وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الأجلي وصعود الأجيال على مراقى الفضائل واشراف طوائف الانسان على دقائق الحقائق ونيلهم للسعادة الحقيقية فى الدارين كل ذلك مشروط بامور لا يتم الا بها

﴿ الامور التى تتم بها سعادة الامم ﴾

الاول صفاء العقول من كدر الخرافات وصدإ الاوهام فان عقيدة وهميه لو تندس بها العقل لقامت حجاباً كثيفاً يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الامر بل ان خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك ان يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب له دون الحقائق ستاراً لايخرق وفوق ذلك ماتجلبه الاوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لايخيف والفزع مما لايفزع. ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم ويضطرب من هبوب الرياح وينزعج لقصف الرعد والتماع عليه البرق ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له في الاخافة وهذا يسجل

عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ثم يكون ألعوبة في أيدى المحتالين وصيداً في حبائل الماكرين والدجالين

وأول ركن بنى عليه الدين الاسلامي صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الاوهام فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله متفرد بتصريف الاكوان متوحد فى خلق الفواعل والافعال وان من الواجب طرح كل ظن في انسان او جماد علوياً كان او سفلياً بان له فى الكون أثراً بنفع اوضر او اعطاء اومنع او اعزاز او اذلال ومن المفروض خلع كل عقيدة بان الله جل شأنه ظهر اويظهر بلباس البشر اوحيوان آخر لصلاح اوفساد اوان تلك الذات المقدسة نالت فى بعض اطوارها شديد الآلام واليم الاسقام لمصلحة احد من الخلق فضلا عما يحف بذلك من خرافات كل واحدة منها كافية فى اعماء العقول وطمس نورها

واغلب الاديان الموجودة لايخلو من هذه الاوهام ان شئت فاضرب بنظرك الى ديانة برهما «في الهند» ودين بوذه «فى الصين» ودين زرادشت «فى بقايا الفارسيين» وكثير من أديان أُخر

الثانى

الامر الثانى ان تكون نفوس الامم مستقبلة وجهة الشرف طامحة الى بلوغ الغاية منه بان يجد كل واحد من نفسه انه لائق باية مرتبة من مراتب الكمال الانسانى ماعدا رتبة النبوّة فانها بمعزل عن المطمع وانما يختص الله بها من شاء من عباده ولا يذهب وهم أحد من الامة الى انه ناقص الفطرة منحط المنزلة فاقد الاستعداد لشيء من الكمالات فاذا أخذت

نفوس الناس حظها من هذه الصفة أعنى الاقبال على وجوه الشرف تسابق كلٌ مع الآخر فى مجالات الفضائل وتمادت بهم المجاراة الى محاسن الاعمال فبلغ كلٌ واحد ماأتى عليه سعيه من عاليات الامور وشرائف المراتب ولو ان قوما أساؤا الظن بأنفسهم واعتقدوا ان نصيبهم من الفطرة نقص الاستعداد وخسة المنزلة وان لا سبيل لهم الى الوقوف فى مصاف غيرهم من طبقات الناس فلا ريب يسقط من هممهم على مقدار ماظنوا فى أنفسهم وبذلك يتولى النقص أعمالهم ويملك الجمود عقولهم فيحرمون معظم الكمالات البشرية وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية وتكون جولتهم فى دائرة ضنكة محيطها دون ماظنوا بأنفسهم

ان دين الاسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الانفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ومحق امتياز الاجناس وتفاضل الاصناف وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسى لاغير فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة. وقد لانجد من الاديان مايجمع أطراف هذه القاعدة . فذلك دين «برهما» قسم الناس الى أربعة أقسام أحدها «برهمن» وثانيها «جهترى» وثالثها «ويش» ورابعها «شودر» وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لايجاوزها فاعلى منازل الكمال للبرهمن ويليها منزلة الجهترى والصنف الرابع أخسها وأدناها فى جميع المزايا الانسانية وكان هذا التقسيم سبباً فى انحطاط المتدينين بهذا الدين وقصور خطاهم عن الرقي فى مدارج المدنية وانحسار أفكارهم دون الوصول الى مايطالبه استعدادهم

من المعارف الصحيحة والعلوم الحقة مع انهم اقدم الامم وأسبقها نظراً فى الكون وشؤونه. ومن الاديان مايغلب اليوم على أمم من البشر وفى أصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب اسرائيل مثلا وكتابه المعروف يخاطب أبناء ذلك الشعب بالكرامة والاجلال ويذكر غيرهم بالتحقير والاهانة. ثم جاء رؤساء ذلك الدين او انسلوا من هذا الحكم وأغفل فيما بينهم حتى كأنه لم يكن من دينهم الا ان ماسلبوه من الكرامة عن غيرهم انتحلوه لانفسهم فارتفع امتياز الجنسية من بين أهل الدين وخلفه امتياز الصنفية فسمت منزلة الرؤساء الروحانيين فى قلوب الآخذين بدينهم حتى صار من عقائدهم ان صنفاً من الناس على منزلة القرب الى الله بحيث لا يرد الله له طلبة ثم هو الحجاب بين الله وبين سائر الاصناف لا يقبل الله من أحد صرفاً ولا عدلا ولا يعتدله بايمان ولا يغفر له ذنباً بتوبة حتى يتوسط له أهل طبقة الرئاسة فعندهم ان كل نفس وان بلغت من الكمال مابلغت ليس فيها مايؤهلها لعرض ذنوبها على أبواب العفو الآلهى ولا أن ترفع اليه طلب المغفرة لخطيئاتها بل لابد فى قبول ذلك منها ان يكون بواسطة الرئيس الدينى ومن آمن بالله وصدق به وأخذ باحكامه لا ينظر الله لايمانه حتي ينظر اليه الرئيس الدينى ويعتده إيمانا واستندوا فى هذه العقائد على نصوص من كتابهم تفيد ان ما يحلونه في الأرض يكون محلولا في السماء وما يعقدونه فى الارض يعقد فى السماء وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاء طويلا والقت بهم فى جهالة عمياء وذلة خرساء زمناً مديداً حتى ظهر فيهم مجددون نقضوا ذلك العقد وخالفوا فيه ما اشتهر من نصوص الكتاب وقلدوا فى

ذلك الدين الاسلامى وسموا مذهبهم مذهب الاصلاح ونشروه فى ممالك متعددة فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشفت عنهم جهالات وحلت من أعناقهم ربق ونهضوا من حضيض ذلة الى ذروة رفعة فنطقوا بعد ما صمتوا وعلموا بعد ما جهلوا وحكموا بعد ما حكموا وسادوا بعدما سيدوا .

﴿ الثالث ﴾

الامر الثالث أن تكون عقائد الامة وهى أول رقم ينقش في ألواح نفوسها مبنية على البراهين القوية والادلة الصحيحة وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وتترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها فان معتقدا لاحث العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لا يكون موقنا فلا يكون مؤمنا هذا والآخذ فى عقائده بالظن ينصب عقله على متابعة الظنون والقانع بان آباءه كانوا على مثل عقيدته فاولى به أن يكون عليها يلتقي مع سابقه فى مضارب الوهم وفجاج الظن وأولئك المتبعون للظن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ما تعودت ادراكه فلا يذهبون مذاهب الفكر ولا يسلكون طرائق النظر واذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم عن أداء وظائفهما العقلية بالمرة فيدركها العجز عن تمييز الخير من الشر فيحيط بهم الشقاء ويتعثر بهم البخت وبئس المآل مآلهم

فان كان لا بد من الاستئناس لما نقول بقول أوربى فهذا ﴿ كيزو ﴾ الفرنساوى صاحب تاريخ ﴿ سيفليزاسيون ﴾ أي التمدن الاوربي قال إن من أشد الاسباب أثراً فى سوق أوربا الى تمدنها ظهور طائفة فى تلك

البلاد قالت ان لنا حقاً فى البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها ولو كان ديننا هو الدين المسيحي وعارضها كثير من رؤساء الدين ومنعوها ما ادعت من الحق محتجين عليها بأن بناء الدين على التقليد فلما أخذت تلك الطائفة قوتها وانتشرت أفكارها نصلت عقول الاوربيين من علة الغباوة والبلادة ثم تحركت فى مداراتها الفكرية وترددت فى المجالات العلمية وكدحت لاستحصال أسباب المدنية

ان الدين الاسلامى يكاد يكون منفرداً من بين الاديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية والقدح فى سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل وكلما حاكم حاكم الى العقل تنطق نصوصه بان السعادة من نتائج العقل والبصيرة وان الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل وانطفاء نور البصيرة ويرفع أركان الحجة لاصول من العقائد كل منها ينفع العامة ويفيد الخاصة وكلما جاء بحكم شرعى اتبعه ببيان الغاية منه فى الاغلب (راجع القرآن الشريف)

وقلما يوجد من الاديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . ومن الاديان الظاهرة مابنى أعظم أركانه على أصل الكثرة فى الواحد أو الوحدة فى الكثير وأن الواحد يكون كثيرا والكثير يكون واحداً مما تنبذه بداهة العقل فلما انكر العقل أصل هذا أجمع أهل الدين على انه فوق نظر العقل فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ولا يهتدي لدليل عليه ولا مرشد اليه يريدون

أنه لا بد من تنكب طريق العقل ونبذ احكامه حتى يمكن الايمان بهذا
الاصل مع ان العقل مشرق الايمان فمن تحول عنه فقد دابر الايمان وان
فرقا بين مالا يصل العقل الى كنهه لكنه يعرفه بأثره وبين ما يحكم العقل
باستحالته فالاول معروف عند العقل يقر بوجوده ويقف دون سرادقات
عزته أما الثانى فمطروح من نظره ساقط من اعتباره لا يتعلق به عقد من
عقوده فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه أما أصول دين برهما فمن
البين لكل ناظر فيها أن أغلبها مخالف لصريح العقل وذلك من جليات
المسائل سواء اعترف أهل هذا الدين بثبوته أو كابروا بانكاره

﴿ الامر الرابع ﴾

الرابع أن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الامة لا
ينون في تنوير عقولهم بالمعارف الحقة وتحليتها بالعلوم الضافية ولا يألون
جهداً فى تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم في جوادها ثم طائفة أخرى
تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها وتكشف عن الاوصاف
الفاضلة وحدودها وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها وتفضح مستور
الرذائل وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدنسين بها وتشتد في
الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لا تلهيها عنهما غفلة ولا تردها عنهما صعوبة
وذلك أن بداهة العقل حاكمة بأن جل المعارف البشرية والعقائد
الدينية مكتسبة فان لم يكن في الناس معلم قصرت العقول عن درك ما
ينبغي لها دركه وانقطعت دون الكفاية مما يلزم لسد ضرورات الحياة الاولى
والاستعداد لما يكون في الاخرى وساوى الانسان في معيشته سائر الحيوانات

وحرم سعادة الدارين وفارق هذه الدنيا على اتعس الاحوال فاذن من الواجب الديني اقامة معلم . والشهوات النفسية ليس لها من ذاتها حد تقف عنده ولا لرغائب الانفس غاية تنقطع عندها فان فقد من بين الناس مقوم النفوس ومعدل الاخلاق طغى سلطان الشهوة واندفع الى الحيف والاجحاف ومن طغت بهم شهوتهم سلبوا راحة غيرهم وهتكوا استار امتهم ثم هم لا ينفلتون من غائلة أعمالهم بل يحترقون بنيران شهواتهم فيرافقون الدنيا على عناء ويفارقونها الى شقاء فاذن لا بد من الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر القائم بتقويم الاخلاق . وان من أهم الاركان الدينيـة في الديانة الاسلامية هاتين الفريضتين ﴿ نصب المعلم ليؤدي عمل التعليم واقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر ﴾ راجع القرآن الشريف ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وغير هـذه الآية آيات كثيرة ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منكم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وسواها آيات ﴾ وقد برز دين الاسلام على غالب الاديان في العناية بهذين الامرين

وحيث كانت أركان الدين الاسلامي بالغة حد الكثرة فلو أخـذت في بيان مايفيده كل ركن منها في تقويم المدنية وتشييد بناء النظام الانساني واقامة الدليل على ان كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الانسانية لخرجت عن القصد من هذه الرسالة

ولهذا أخذت على نفسي ان أضع رسالة تختص بذلك الغرض أبين فيها ان المدنية الفاضلة التي مات الحكماء على حسرة من فقدها لاتختط في

العالم الانسانى الا بالدين الاسلامى

فان قال قائل ان كانت الديانة الاسلامية على مابينت فما بال المسلمين على مانرى من الحال السيئة والشأن المحزن فجوابه ان المسلمين كانوا كما كانوا وبلغوا بدينهم مابلغوا والعالم يشهد بفضلهم وا كتفى الآن من القول بهذا النص الشريف ﴿ ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابانفسهم ﴾

وهذا آخر ماأردت بيانه في هذه الرسالة ينتهى به ماأجملته فى كشف سوآت النيشريين ﴿ الدهريين ﴾ ومضار طريقتهم فى المدنية والهيئة الاجتماعية الانسانية وتوضيح الادلة على منفعة الاديان ولزومها لقيام النظام البشري خصوصاً دين الاسلام والى الله المنتهى ورضاه المبتغي والصلاة والسلام على خاتم رسله وآله وصحبه وسلم

﴿ خاتمة الطبع ﴾

بحمد من طبع القلوب على محبته وفطر العقول على الاعتقاد بربوبيته قد انتهى طبع رسالة الرد على الدهريين للمرحوم السيد جمال الدين الحسينى الافغاني وهي كما يراها المنصف الرسالة الوحيدة فى موضوعها الفريدة فى بابها قد براها ذلك الفكر الثاقب والخاطر الجوال فى ميدان الحقائق دفاعا عن المظاهر القدسية واقناعا لمن أراد أن يقنع بهذه الحجج الدامغة

واذ كان من الثابت أن أفعال الانسان هى مظاهره الحقيقية ومشخصاته الذاتية فما لا جدال فيه أن هـذا الاثر المفيد ينطق بلسان مُجيد معبرا عن مكانة المؤلف في الفضيلة ورفعة منزلته في الكمال. ولولا أن هذه الرسالة

صغيرة الحجم مع اشتهار مؤلفها بانه الكبير في العلم العظيم في المعاوف لقلنا إنه رحمه الله كان يدأب طول حياته سعيا وراء معتقدات الأمم ووقوفاً على تاريخ الديانات حتى أمكنه أن يجمع هذه البراهين والادلة على ضرورة الدين ولزوم التمسك به والعهد بمعارفه أوسع وأجمع من هذا التأليف النادر المثال

ولكن الرسالة (كما يراه المطلع على ترجمة المؤلف) جواب على سؤال ورد اليه من مولوي محمد واصل وربما كان قبل ذلك لا يفكر في الكتابة في هذا الموضوع الجليل الى أن ورد عليه ذلك السؤال عن حقيقة مذهب الدهريين حتى لا يستقل هذا التأليف في جانبه ولا يقال انه غاية مكنته فالرجل رحمه الله قضى حياته فى نضال عن الحق ومدافعة عن الفضيلة ولم يترك له الوقت سعة للتأليف سوى ما كان أخذه على نفسه وعقد عليه النية من أنه سيضع رسالة في أن المدنية الفاضلة التي مات الحكماء على حسرة من فقدانها لا تختط فى العالم الانسانى الا بالدين الاسلامى وقد حال بينه وبين نجاز الوعد حوائل يضيق المقام عن سردها . ولنا فى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الكامل معرب هذه الرسالة ما يحقق تلك الامنية التى كان يتمناها ذاك الفيلسوف وقدمات رحمه الله على حسرة من عدم نجازها وساوى الحكماء قبله فى الموت على حسرة من فقدان المدنية الفاضلة في هذا العالم

فاللهم وفق الجميع الي الاصالة في الرأى والعمل والسداد فى القول واعصمنا من الخطأ والزلل انك سميع الدعاء

عبد العليم صالح

المحامى

